خبز البحر
رواية
د. مِرفت مُحرَّم

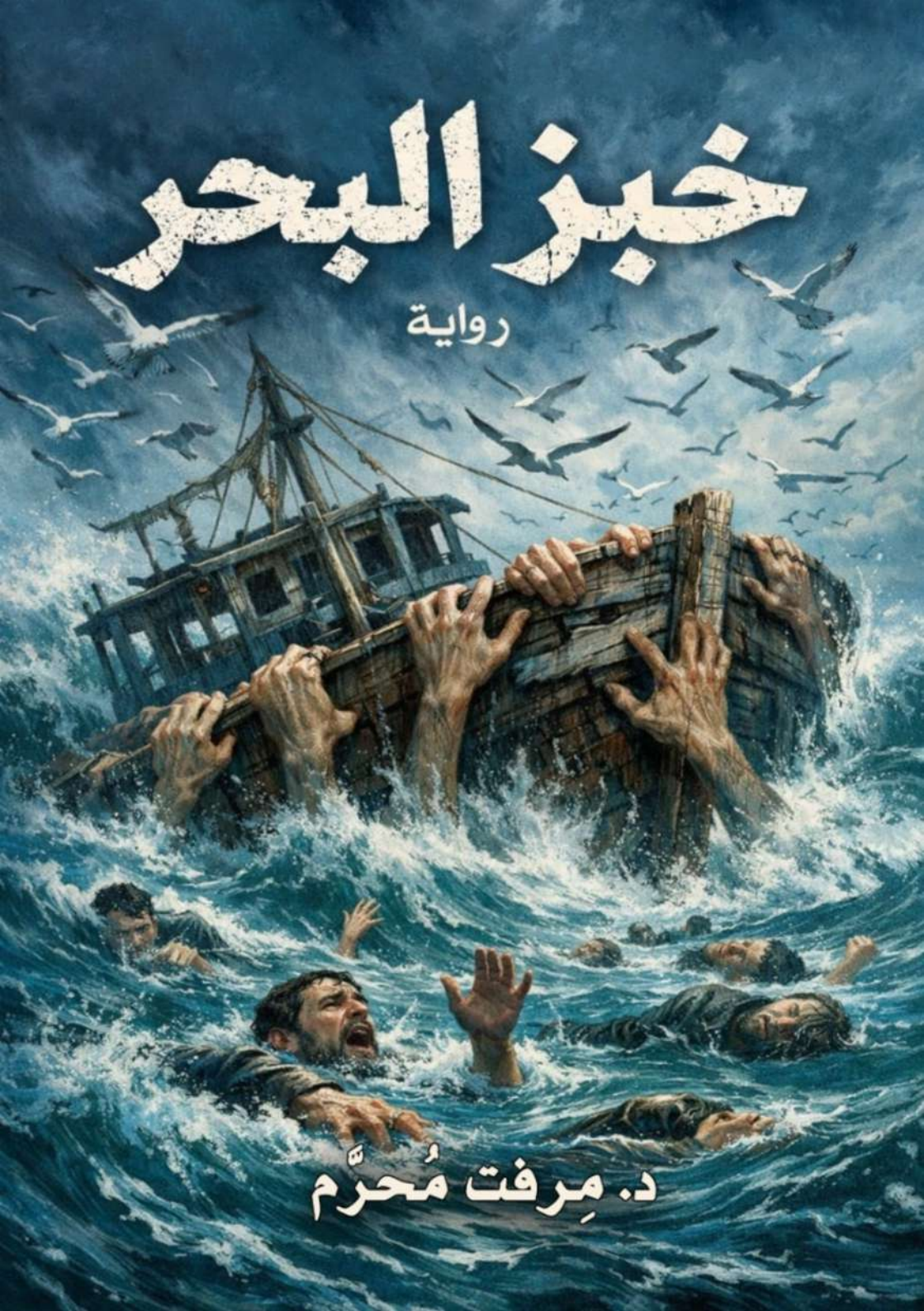

د. مرفـت محــرم

خُــبْزُ البَـحْرِ

روايـة

إهداء

إلى مصر أرض الكنانة. إلى ترابك الطيِّب، وسمائك التي لا تُغلق ذراعيها. إلى شبابك الحالمين، فأبناؤك هم النُّور القادم. لنبحث عن حياة كريمة تحفظهم، وتنقذهم من براثن الخوف، ومن أيادٍ تُتاجر بأحلامهم، تدفعهم إلى مغادرة الدفء نحو المجهول فتبتلعهم البحار في صمت حزين، كزلزال مدمر وأعاصيرَ مهلكة؛ فلنكن الحصن قبل أن يكون البحرُ هو المصير.

مرفت محرم

- 1 -

"خبز لا يأتي"

جائع أنا، لا للطعام وحده بل للكرامة، وللظلِّ الذي لا يهتز، ولصوت لا يصبح على أبواب الصمت. منذ ولدت، وأنا أعد الأيام على أصابع أمي، كل إصبع تحكي جوعًا، وحلمًا مؤجلًا، وسقفًا بلا حيطان. كانوا يخبرونني دائمًا أن الخبز قادم، لكنني لم أَرَهُ على حقيقته، بل جاء في هيئة موجة، قارب هش يذوب في الماء، كما يذوب الأمل في العيون الحزينة.

أنا ابن الفقر والحرمان والذين ينامون على الطين، ويحلمون بسقف من النجوم. هل تعرف معنى أن تموت جائعًا؟ أن تمضغ الهواء وتبتسم، أن تشتهي صوت أمك، ولا تملك ثمن الهاتف! لا، خبزنا ليس في الأفران، بل في قوارب الموت، في الحكايات المعلقة على الحدود، في

قبور بلا أسماء، لكننا رغم ذلك لا نموت، بل نكتب، نحكي، ونصرخ، نحمل الخبز الحقيقي في قلوبنا. خبز لا يباع ولا يغرق، إنه خبز البحر، بصوت البحر، وبطعم الملح، فأنا البحر. لم أكن قاتلًا، بل كنتُ سطرًا ممدودًا في سفر الرحيل، كنت مرآة للسماء، ومقبرة للصمت. جاءوني حفاة الأرواح، محمَّلين بالخوف، بالهلع، بالجوع، والحكايات، حملوا في صدورهم رغيفًا مفقودًا، وخرائط بلا مرافئ، نادوني طريقًا، وما كنت إلا قعرًا لا قرار له. حين قفزوا إليَّ لم أُغلق ذراعيَّ، احتضنتهم كما تفعل الأم المفجوعة؛ لكنني كنت باردًا، كنتُ عميقًا أكثر مما يحتمل قلب إنسان، وما أردت إلا أن أكون إنسانًا؛ فقد رأيت النعوش تطفو، تتأرجح كما الأحلام المتعبة. أجسادٌ ممزقة، أطفالٌ بلا أسماء، رجال ما زالوا يفتحون أعينهم تحت الماء كأنهم لا يصدقون أن النهاية قريبة بهذا الشكل. أسماك القرش شاركت الوليمة، طيورٌ جارحة حلَّقت فوق مائدتي من لحم وعظام. الغربان نعقت، والسماء اختنقت، ولم يبقَ سوى الوقت، يدوِّن المأساة في أسفار الغياب.

أنا البحر، وما عدت بريئًا. أنا البحر، وما عدت أحتمل. كل ليلة أُعيد دفنهم.

كل فجر أرشق الشاطئ بجسد جديد، ولا أحد يسأل، لماذا؟ لأنهم أرادوا "الخبز"، وأنا أعطيتهم الخلود.

-2-

"جذور الألم"

هذه هي القاهرة أمامي تنظر إليَّ كأنها تسخر مني، أسكن في حجرة ضيقة على سطح عمارة قديمة بحي شعبي، تفوح منه روائح الطهي والعرق والرطوبة، كل شيء في حياتي كان مستعملًا حتى الهواء، ولم أعرف يومًا طعم الطفولة.

الخبز اليابس وبقايا طعام منسي في طبق بلاستيكيٍّ ألقي في ركن الحارة، هو "أملي". مات أبي وأنا في التاسعة من عمري، رجل بسيط يعمل نجارًا، مات واقفًا على قدميه بسكتة دماغية. تركني أنا وأمي للعالم، كأننا قطعة خشب زائدة لا يحتاجها أحد. لم تحتمل أمي حياة العراء فأصابها الهزال والوجع، كانت تُخبئ سُعالَها ليلًا كي لا تقلقني، غادرت إلى العالم الآخر دون أن تترك لي

شيئًا سوى دموع مالحة، وذاكرة معبأة بالعذاب. منذ ذلك اليوم أصبحت من ساكني السطوح، تركت الدراسة، وأدمنت لغة أرصفة الشوارع، والحذر من أصحاب العيون الجائعة والقلوب المتحجرة.

عملت في كل ما يمكن أن أكتسب منه لقمة عيش، في ورش صيانة، في قهوة أُقدم الشاي والنارجيلة، وفي مطعم أغسل الصحون، وأجرتي هي بقايا وجبات الزبائن. في الليالي الباردة كنت أنام متكورًا، أضم ركبتيَّ إلى صدري كجنين في رحم المدينة.

على حافة السطح، قدماي تتدليان في الهواء كأنهما تبحثان عن درج تنزلني من هذه الحياة، الهواء الرمادي في القاهرة كان يمتلئ بغبار الصباح وروائح القمامة المتراكمة في الحواري الضيقة، وأنا كنت أتذكر كلام أمي،

وهي تقول:

- اصبر يا موسى، فربك كريم.

اختبرني القدر طويلًا، أطول مما يحتمل طفلٌ يسكن سطح عمارةٍ من خمسة طوابق، لا تفتح نوافذها على شيء، كنت أستيقظ كل يوم على صوت القطط، رفيقاتي في الجوع والوحدة، كنا نقتسم فُتات الخبز، كنت أحيانًا أضحك من نفسي:

- **أنا أصبحت قطًّا، صوتي يتحول لمواء، صار لي شارب وذيل وجسم يحمل فروة، هل يسمع أحد ضحكات الجوعى؟**

في النهار أهبط الدرجات الباردة في حذر، أمرُّ على أبواب الجيران التي تُغلق كأنهم يخافون من أن يراهم الفقر.

أطرق باب الحاجة "أم سميحة" كمن يطلب النجاة، تسألني من خلف الباب:

– أما زلت حيًّا؟

أبتسم وأقول:

– نعم، ما زلت أحيا.

ثم أذهب إلى أكياس القمامة قرب المطاعم الشعبية أبحث عن بقايا خبز، أمد يدي كأنني أبحث عن كنز، بينما أجد نصف رغيف يابس أضعه في جيبي كمن يصنع حريته، الخجل نسيته منذ بدأت أتناول غذائي من كيس أسود ملقى على الرصيف.

في أحد الأيام جلست أعدُّ كم ساعة قضيتها بلا طعام! كانت ثلاثين ثم صارت خمسًا وأربعين، لا أجد غير الماء يطعمني. في الزاوية الباردة من العمر حيث الخبز حلم، والظل مأوى، أنام على وسادة الوهم، وأغفو على طاولة الانتظار، عينان مفتوحتان على سقف متشقق، أسمع صوت معدتي كأنها تنقر على أبواب الرحمة. أرى في المنام رغيفًا يطير كعصفور في اليد ولا يأتي، أمشي وراءه كأنين طفل، صوت أمي يناديني ويد أبي المصلوبة على حائط الغياب، كلُّ النوافذ تُقفل في وجهي إلا نافذة وحيدة اسمها الحلم، تطل على موائد الآخرين! أنا لا أريد ذهبًا ولا مدينة فارهة، أريد فقط وجبة أشتهيها، أريد بيتًا

من صفيح يقيني من المطر، ووسادة لا تبللها دموع العجز وأحلام الجوعِ، ليست عظيمة، هي فقط صادقة، تنزف من بطن فارغٍ، وتحفر في القلب جرحًا لا تراه إلا الأرواح الظمأى.

المدينة نائمة أو تتظاهر بالنوم، أما أنا فسهران في وحدتي جالس على أرضية الأسمنت للسطح، وظهري مسنود إلى خزان الماء البارد. الهواء عليل، لكنَّ داخلي يغلي. في يدي هاتف قديم، شاشته مشروخة وكأنها صورة لحياتي. فتحت تطبيق التسجيل الصوتي، وضغطت على زر التسجيل، أتكلم بصوت متقطع.

كأن كلماتي تسحب من روحي شاردًا:

-لا أحد يراني أو يسمعني! أجلس وحدي، هنا، وسط العتمة والسكون، كأن العالم كله قافل الباب في وجهي، وتركني أصرخ وحدي، أبكي من غير صوت، من غير دمعة، حتى الوجع يمزقني.

سكتُّ لحظة، أغمضت عينيَّ ثم تابعت:

- كل شيء أفعله وأنا صامت، صامت كأني غير موجود. التفكير أكل دماغي، وقلبي وجعني من كثرة ما أكتم!

كل مرة يسألني أحد:

- كيف حالك؟

أضحك وأقول:

- عادي، لكنني في الحقيقة لست عاديًّا، أنا منكسر من داخلي!

رفعت عينيَّ نحو السماء، ليلُ القاهرةِ قاسٍ، لم يكن رحيمًا. لسنا جيلًا فاشلًا، نحن جيل احتضنه الموت وعانقه قبل أن يرى فرحًا، جيل شاخ قبل الميعاد، انظروا إلى وجوهنا التي كساها التعب والحزن، والذي خسر عمره في طريقٍ قهرته الظروف؛ فاختاره. نزلت دمعةٌ رغمًا عني، ضحكتنا في الصور ليست فرحًا، بل هدنة قصيرة مؤجلة قبل أن نعود للحرب. نعيش يومًا بيوم، في الصباح نجري، ونستقبل

النوم، نفكر في غد ولن يأتي، كل واحد منا يحمل همًّا أكبر من عمره بكثير! جيل ذاب وهو ما زال شبابًا، ذاب في أوجاعه. ضغطت على زر الإيقاف؛ لحظة صمت مرير، ثم خفضت الهاتف، وأسندته إلى جانبي، كأنها كانت آخر وصية صوتية مني للعالم، وتظاهرت بالنوم. أما أنا فسهران في وحدتي جالس على الأرض. في ذات ليلة كنت أقف عند سور كوبري أشاهد النيل بلا رغبة مني، فكرت في أن ألقي جسدي داخله وأنهي حياتي كلها، لكنَّ يدًا أمسكت بي، يد رجل غريب لم أنس وجهه قَطُّ، لم يسألني عن اسمي، فقط قال لي:

- "ابحث لنفسك عن مكان في الدنيا، حتى لو كان بعيدًا".

في تلك الليلة صرت أفكر في البحر لأهرب إليه، لقد سمعت كثيرًا من شباب هذا الحي من الحالمين بإيطاليا وفرنسا الذين عادوا وهم يحملون أجهزة موبايل جديدة، وقمصانًا ضيقة، وروائح عطور غالية؛ فصار البحر حلمي الوحيد.

-3-

"زوابع البحر"

لم يعد السطح مكانًا للنوم، بل للمؤامرة على البؤس، كانت السماء فوقي قريبة، النجوم تلمع كأنها تشاركني أحلامي، لكنه لم يعد حلمًا، بل صرت أخطط للبحر وهو المخرج الوحيد.

في الحي كان هناك شابٌّ يُدعى ربيع، جيبه ممتلئ، وجسده مثقب من الخوف؛ لكنه نجا. صار يجلس في المقهى يحكي عن الرحلة، وكأنه يروي مشهد فيلم رديء.

الكل ينصت، لكنني كنت أسجل التفاصيل في قلبي لا في عقلي.

تقدمت إليه بهدوء:

- هل يوجد من يساعدني على الهرب؟

نظر إليَّ ربيع من أعلى إلى أسفل، وابتسم بسخرية:

- البحر ليس لعبة يا فتى! ليس كل مرة من يذهب يعود، أنا ذاهب ولن أعود!

نظر إليَّ ربيع ثم قال:

- سأتكلم مع العقرب، عليك أن تدفع!

بدأت ألملم أعضائي، أتنفس، أفكر. بدأت العمل ليل نهار في كل شيء، تنظيف سيارات، حمل صناديق في الأسواق، دخول مستودعات ليلية؛ حتى جمعت مبلغًا لا بأس به، مع بيع ما في ورشة أبي من أخشاب، التقيت بربيع وأخبرته.

فقال لي:

- سأكلم العقرب، تدفع، وعندما تصل؛ سيجعل رجاله معك.

نظرت إليه:

- وأنا موافق.

وبعد أسبوع تلقيت رسالة:

- المكان في موقف عبود عند الأتوبيسات القديمة الساعة الثانية بعد منتصف الليل، لا تتكلم، لا تسأل، التزم الصمت، اتبع من ينادي اسمك.

كانت ليلة بلا نوم، جلست على الحافة أحدق في المدينة النائمة، وفي داخلي ضجيج لا يهدأ، أخذت كيسًا صغيرًا وضعت فيه صورة أمي القديمة، وقطعة خبز يابسة، ومصحفًا صغيرًا أعطاه لي شيخ في الجامع، غادرت دون أن يودعني أحد، ولم يعد هناك من أودعه!

-4-

"طريق الرمال"

في ليلة خانقة الهواء، امتزج فيها ليل القاهرة بدخان المواصلات، ركبت أولى حافلات الرحيل من موقف ألماظة، لم يكن في جيبي سوى كيس صغير، وقلبي الممزق بين الخوف والأمل والرجاء. كان السائق يصرخ في الركاب ليركبوا بسرعة، وصوت المحرك يعلو فوق كل شيء، جلست بجانب رجل نائم لا يكاد يتنفس من التعب، رحت أنظر من نافذة الأتوبيس على المدينة التي طالما عرفتها جائعة قاسية، هذه المرة كنت أهرب منها نحو المهرب الوحيد، البحر. أول محطة كانت بنها، توقف الأتوبيس في محطة البنزين قرب بنها، نزل البعض لقضاء حوائجهم، وظللت جالسًا أحتضن كيسي كأنه طفلي الوحيد.

قلت في نفسي:

- الطريق طويل!

شرد ذهني إلى السطوح، وقططي التي فارقتها وهي تودعني. من يقاسمها فُتات الخبز، ويحكي معها الليل الطويل بموائها؟ وأرجلي وهي تتدلى من فوق السطح تبحث عن أملِ غدٍ جديد مع النجوم العالقة في السماء، والتي دومًا تقترب مني، نجمتي الحالمة الجميلة وجهها أجمل من القمر تحدثني عن أحلامنا في عالمنا الوردي. مرت السيارة بطنطا، المحلات تغلق أبوابها، والهدوء الثقيل منتشر فيها، الأضواء باهتة، لكن الأنوار والبركة تملأ طنطا من صاحب المقام العالي سيدي أحمد البدوي، قرأت له الفاتحة، ودعوت الله أن يحفظني، ويحقق لي آمالي. وصلنا إلى دمنهور، مدينة لا أعرفها لكنني أحس بها من قبل في كوابيسي القديمة، ولا أعرف لماذا! ساعة ووصلنا مع الفجر إلى مدينة الإسكندرية، لم تكن لي محطة نهائية، هواء البحر يلاطفنا وينعشنا، إنها المدينة الحالمة، ركبنا منها حافلة صغيرة إلى العلمين، ثم قرية بعد قرية، حتى ضاعت أسماء الأماكن في رأسي، واختلطت اللافتات برائحة

الغربة. الطريق الساحلي الغربي بدا كأن لا نهاية له، الصحراء تطل من جانب، والبحر في جهة أخرى. صمت مريب كأنه يراقبنا. سيدي عبد الرحمن، الضبعة، فوكة، النجيلة، كلها محطات على هامش الخريطة، لكن كنت ألتقط منها أنفاس الرحيل. قبل الوصول إلى مرسى مطروح توقف السائق فجأة عند نقطة تفتيش؛ توتر الجميع، اقترب الجندي من النافذة،

وسأل:

- إلى أين تتجهون؟

أجاب السائق بثقة:

- عمال ذاهبون إلى مشروع هناك في منطقة النجيلة.

لم يسأل أكثر، حرك يده ومضينا حتى وصلت الحافلة إلى مرسى مطروح، غربتِ الشمسُ وغاصت واختفت تحت البحر مودعة حتى تعود في يوم جديد، والليل يجوب المدينة

بهدوء غريب. كان هناك من ينتظر، رجل أصلع في منتصف الأربعينيات يحمل هاتفًا قديمًا ويتلفت حوله.

اقتربت منه بحذر، وقلت الكلمة المتفق عليها:

– أنا قادم من طرف ربيع.

نظر إليَّ الرجل مليًّا، وأشار أن أتبعه دون كلام.

سرنا في طرق ترابية ضيقة حتى وصلنا إلى بيت بسيط على أطراف المدينة، وكان هناك أكثر من عشرين شابًّا أغلبهم من صعيد مصر، وبعضهم من السودان، وفتًى من المغرب. دخلت وجلست على الأرض، لم يسألني أحد من أين أتيت، ولم أسأل أنا أيضًا.

-٥-

"صحراء الغياب وبوابة الذل"

استيقظت فجرًا في الغرفة المزدحمة بمرسى مطروح، وكان الهواء معجونًا برائحة أجساد متعبة وماء مالح. جاءهم المُهرِّب الليبي الذي يلقب بالقرش،

وقال بصوت منخفض:

- **يستعد من يركب للسلوم الساعة السابعة ليلًا، بدون موبايلات، فلنلتزم الصمت.**

كان الجميع يعلم أن الطريق من مطروح إلى ليبيا ليس رحلة، بل نفقًا مظلمًا. التهريب البري لا يمر عبر طرق الأسفلت المعتادة، بل عبر مسارات تعرف فقط لمن فقدوا الخوف. عند المغرب، انطلقت السيارة الدبابة وهي شاحنة نصف متهالكة مفتوحة من الخلف، يجلس فيها المهاجرون

كالحقائب، مرت بهم عبر طرق فرعية، تشق رمال مطروح تجاه الجنوب الغربي. الطريق من مرسى مطروح إلى السلوم مفاصل الأرض والوجع.

مرسى مطروح محطة المهربين الأخيرة على الأرض المصرية الآمنة، أما وادي النطرون فطريق التفافية.

لم يكن المسار مباشرًا، مرت السيارة عبر فرع صحراوي نحو وادي النطرون حيث الممرات الوعرة والمزارع المتناثرة، توقفوا فيها ساعات للاختباء. "أم القرى" بلدة صغيرة مغمورة يستخدمها المهربون كنقطة عبور نحو الداخل، قضينا فيها ليلة في كوخ طيني، وتعرفت على جمعة – الشاب السوداني – الذي صار رفيق الطريق. واحة سيوة: واحة الغروب، جمال فاتن وسط الصحراء، توقفنا فيها لتعبئة المياه، السكان المحليون يعرفون التهريب، لكن لا أحد يتكلم. مررنا من خلف الواحة حيث تتداخل الرمال مع الملح، والجفاف مع التاريخ. طريق السلوم: بعد أيام من التَّرْحَال البري المتقطع وصلنا إلى أطراف السلوم، حيث

الجبال السوداء شاهقة، والبحر إلى اليسار، والحدود تلوح كرأس أفعى نائمة.

السلوم ورائحة الحدود في منطقة الكمائن المهجورة، توقفت الشاحنة، ترجل الرجال بصمت، وأشار القرش إليهم أن يزحفوا واحدًا تلو الآخر عبر ممر ترابي محفور كأنه قبر.

جاء الليل، وصلنا إلى طرقات بعيدة، لا أحد يجرؤ أن يرفع رأسه. وصلنا إلى منطقة تعرف باسم البوابة السوداء، وهي ممر رملي ضيق يؤدي إلى بوابة "إمساعد" الليبية.

عند الفجر دخلنا الأراضي الليبية، لم تكن هناك أعلام، ولا حدود واضحة، لكن رائحة المكان تغيرت، الهواء صار أخف والقلق صار أثقل. هنا، انتهت الأرض التي أعرفها وبدأت أرض لا تشبه شيئًا، أرض التهريب والعصابات والبحر.

-6-

"زوارة، وجه الموت يبتسم"

عند عبور الحدود، لم يكن في استقبالنا سوى رجل ملثم، يتحدث بلهجة ليبية مكسورة بالعربية، يقود شاحنة لا تحمل لوحات، أمرنا بالصعود واحدًا تلو الآخر؛ فركبنا فوق بعضنا كما تُرتب صناديق الفاكهة. كانت العيون متعبة والأنفاس محتبسة.

تمتم أحدهم متسائلًا:

- دخلنا، لكن لأي مصير؟

الطريق إلى زوارة: الرحلة من السلوم إلى زوارة كانت طويلة كالعمر، مررنا عبر بلدات ليبية شبه مهجورة: إمساعد، طبرق، أجدابيا، ثم مررنا بجانب سِرت، المدينة التي نخشى ذكر اسمها، حيث تنتشر المليشيات وذكريات الحرب. كل

محطة يتركون فيها شيئًا: حذاء ممزقًا، اسم حبيب، صورة أم، أو ثقة بالنفس.

الوصول إلى زوارة تلك المدينة الساحلية ذات الشطآن الزرقاء، لم تكن كما تخيلتها، دخلنا المدينة ليلًا خائفين من العيون، نمشي خلف المُهرِّب الليبي كأننا أسرى حرب. في بيت شعبي بلا نوافذ جمعونا كالحيوانات، رائحة العرق والموت تملأ الجو.

قال أحدهم:

- **"من يخرج من زوارة حيًّا يُكتب له عمرٌ جديد".**

المهربون كانوا لا يسمون بأسمائهم، بل ينادون بألقاب مرعبة مثل: العقرب، الجلاد، السُّم. واحد منهم صفع شابًّا صغيرًا؛ فقط لأنه عطس.

-7-

" طرابلس – التَّخزين"

بعد يومين، جاءتنا شاحنة مغلقة، ركبنا فيها مثل السلع المنقولة نحو طرابلس، العاصفة المنهكة، الوصول إلى طرابلس لم يكن راحة، بل بداية الجحيم. مبنًى متهالك في ضاحية بعيدة، كان الناس هناك يسمونه "الحفرة".

يطلق المهربون مصطلح التخزين على المكان الذي يُحتجز فيه المهاجرون حتى يتم تجميع العدد الكافي لركوب البحر. إنهم محترفون في تهريب الناس من مختلف الأعمار: شباب، شيوخ، وأطفال. حين أغلق الباب خلفنا في ذلك البيت المتهالك بالحي الشعبي غرب طرابلس، بدأت الحكاية تنقلب من مأساة حقيقية إلى جحيم مستعر، كأن جهنم وقفت تمد يديها وتفرد أحضانها. البيت لم يكن بيتًا، بل سجنًا لا يملكه القانون، ولا تدخله رحمة. قادونا إلى الداخل صفًّا واحدًا، الروائح الخانقة كانت أول ما صفع أنوفنا،

مزيج من عرق بشري قديم، دم يابس، بول رائحته نفاذة. أشياء خانقة للنفس، وجو مفعم بالوحشة كأنه قبر منتن من رائحة الجثث. الطعام إهانة يومية، يأتي مرة واحدة في اليوم، في صندوق بلاستيكي فيه خبز يابس، وعدد من علب التونة منتهية الصلاحية، وماء عكر في جالون. المهربون يرمون الصندوق داخل الغرفة كما تُلقى فضلاتُ الحيوانات، ثم يغلقون الباب من الخارج، ويضحكون.

تشاجر ثلاثة رجال على رغيف، مات أحدهم بضربة رأس على الجدار، المهرب لم يهتم، دخل وجَرَّ الجثة من قدميها، ألقاها في الخارج، وقال:

- فقدنا واحدًا، ارتحنا.

من كان يملك هاتفًا، يُجبر على الاتصال بأهله:

– أرسلوا المال؛ وإلا سنقطع رجله. أرسلوا ألفي دولار، أهذا ابنكم أم لا؟

كان بعضهم يتعرض للضرب إن لم يستجب أهله. آخرون يعذبون بصاعق الكهرباء أو يعلقون من الأرجل. الضحك وحده كان ممنوعًا لأنه يثير غضب الحراس. الغرف مكدسة، السقف منخفض، الأرض ترابية، النوافذ مغلقة بالخشب، الإضاءة خافتة تأتي من لمبة صفراء بالكاد تبين الملامح. كان هناك ما يقارب أربعة وسبعين شخصًا من دول متعددة، مصريون، سودانيون، إريتريون، بنغاليون، مغاربة، طفل من النيجر لا يتجاوز الثانية عشرة، الجميع في حالة انتظار وترقب. لكن، انتظار ماذا؟ لا أحد يجيب الوجوه المحطمة، وفي زاوية مظلمة رفعت رأسي وسألت بصوت خافت؛ كي لا يسمع الحارس خلف الباب الحديدي:

- ما بالكم صامتين؟ الليل هنا يكبر، وكأن جدران الكهف تبتلع أنفاسكم!

كل من في الحفرة له حكاية. مصطفى السوداني شاب في العشرينيات، ضُرب حتى فقد إحدى عينيه؛ لأنه حاول الهروب. حرك جسده بصعوبة، كأنه يبحث عن مكان لعينه المفقودة قبل أن يبحث عن مكان لراحته.

هنا يتكلم مصطفى معي بصوت منخفض:

- الصمت يا أخي نعمة، في أماكن مثل هذه الكلام جريمة لا يتحملها من ينتظر الموت على عتبة البحر.

كانت عين مصطفى الواحدة تلمع كقطعة فحم خرجت من نار لم تنطفئ.

تجلس حورية المغربية قريبة من الباب منكفئة على نفسها، كطفلة تخاف الظلام.

قالت حورية بصوت مكسور:

- أنا هربت من شيء، لكني لم أتوقع أن أجده ينتظرني هنا!

لا تسألوني ما الذي طاردني؟ فالحكايات أحيانًا تقتل أصحابها. الجميع احترم صمتها، حتى الوحش المعدني الذي نسميه مخزن التهريب خفف من أنينه هنيهة.

سامي المصري طفل يتيم في الرابعة عشرة من عمره، يحمل حزنَ رجلٍ عجوز، يحتضن كيسًا بلاستيكيًّا فيه صورةٍ ممزقة لأمه.

قال سامي:

– أخي مات في الطريق، وأنا متأكد من أن البحر لا ينتظر أحدًا.

– لو نجوت فسأبحث عن أمي، أو أبحث عن نفسي، ربما أجد أحدنا!

تقابلت مع أشخاص جُدُد، "ألفارو" من غانا، وهو شاب أسمر قوي البنية كان يتكئ على الحائط وكأنه يحمله.

يقول ألفارو:

- في قريتنا، من يهرب من النمر؛ يجب ألا يتعثر بجذعِ شجرةٍ. هربت من الحرب؛ فوجدت حربًا

أخرى هنا، لكنني أؤمن أن للبحر قلبًا حتى لو كان قاسيًا.

"إليكا" من إريتريا، فتاة هزيلة شعرها مضفور بطريقة إفريقية جميلة، تحكي أنها فقدت أختها في الصحراء، ودفنتها بيديها في الرمل.

تسأل موسى:

– هل تعرف كيف يُدفن الحزن ولا يُدفن صاحبه؟

لهذا أنا هنا، أرض خلف حياة جديدة، ولو كنت فوق الماء.

قابلت يوسف من سوريا، وهو رجل في الثلاثينيات، صوته محشو بالحزن.

قال يوسف:

- نحن جميعًا نبحث عن وطن، البعض يبحث عنه في الأرض، والبعض يبحث عنه في البحر، وأنا بحثت عنه داخل قلبي فلم أجده.

توجهت إليهم بحوار جماعي:

– كلكم تحملون قصصًا، كأننا خرجنا من مدن مختلفة إلى كهف واحد، لماذا نسميه كهفًا؟ ألأنه مظلم؟ أم لأنه يخفي في داخله خوفًا واحدًا يشترك فيه الجميع؟

رد مصطفى:

- لأنه الكهف الأخير قبل البحر، الكهف الذي لا عودة بعده.

علق ألفارو:

- في الكهوف كان البشر الأوائل يختبئون من الوحوش، أما نحن فنختبئ من البشر!

رد يوسف:

– ومن أنفسنا أيضًا.

سامي يرفع صورة ممزقة، ويتكلم هو الآخر:

- وهذا الكهف هو آخر مكان جمع العالم كله بداخله: المصري، والمغربي، والسوداني، والغاني، والسوري، كلنا واحد، لا أحد فينا يملك اسمه!

تمتمت حورية:

- كأننا أسرى قدر واحد، يتكرر بأشكال مختلفة!

سكت الجميع حتى أني شعرت أن تنفس الكهف توقف لحظة.

ثم قالت إليكا بهدوء:

- كل القصص تنتهي بجملة واحدة: "هربنا من الموت فوجدناه ينتظرنا!"

رفعت رأسي فرأيت الظلام يحدق بنا من سقف الصفيح كأنه يوافقها.

فقلت لهم:

- إذا كان هذا الكهف هو موتكم فدعوني أكون شاهدًا عليكم، إن خرجنا فسأكتبكم واحدًا واحدًا، وإن غرقنا فليكن البحر آخر صفحة من فصولنا.

في لحظة فُتح الباب الحديدي بصوت مرعب، دخل الحارس وهو يصرخ:

- "استعدوا"

تجمد الجميع، بعضهم رفع رأسه، وبعضهم خفضه.

أما الكهف فابتلع صرختنا الأخيرة.

-8-

"الهروب إلى الكهف"

لم تكن تلك الليلة عادية، كانت رياح طرابلس تهب من جهة البحر تحمل رائحة ملح وحرية. في إحدى زوايا الحفرة،

وقفت أتمتم:

- البحر ليس بعيدًا، تراودني رائحته.

جلس بجواري مصطفى وحورية وسامي، قال مصطفى بصوت خافت:

- أنا اشتغلت زمان في مخازن طرابلس، البيت قريب من بحر جنزور، فيه كهف صغير تحت الجرف، كنت أذهب إليه لأشرب السجائر بعيدًا عن العيون.

نظرت إليه بعينين متوهجتين:

- أنستطيع الهروب؟

- لو استطعنا أن نصل إلى باب الساحة، هناك ممر بين البيوت يوصلنا للكهف، لكننا نحتاج من يراقب.

بدأنا التخطيط في الظل، كان سامي صغير الحجم، اختبأ قرب الشباك الخشبي يسمع خطوات الحراس. حورية جهزت قطعة قماش كبيرة كانت تمسح بها الأرض، غمرت طرفها في زيت الطعام لتكون قابلة للاشتعال.

كنت أبحث عن مسمار صدئ كان في زاوية الحائط، وسكين طعام منسية تحت بطانية. الخطة التي رسمناها كانت إشعال النار قرب الباب الخلفي، وعند خروج الحارس لإطفائها نندفع نحن الثلاثة إلى الساحة، ننطلق بين الجدران الطينية حتى نصل إلى الممر البحري المؤدي إلى الكهف؛ لكن الخطر الأكبر أن يقبض علينا، في اللحظة الحاسمة أشعلنا النار، تصاعد الدخان في الغرفة؛

ارتبك الجميع، صراخ، هلع؛ فتح الحارس الباب وهو يسب بأقذع الألفاظ، ومسدسه في يده.

حورية ألقت قطعة القماش المشتعلة على الأرض، تراجع الحارس خطوة، وفي اللحظة التالية، انطلقت أنا ومصطفى وسامي كالبرق، لحقت بنا حورية ركضًا وسط الأزقة، صدمنا بجدار ثم تسللنا من بين براميل صدئة، أقدامنا حافية تنزف، وعيوننا تدمع.

-9-

" كهف الملح والسِّر"

فرد طائر الوقت جناحيه، مشيرًا إليهم ناحية سقف الجبل؛ فأوى الجميع إلى كهف له فتحة كفم وحش حجري، تسللنا داخله واحدًا تلو الآخر، نجر أقدامنا فوق الحصى والصخور الزلقة، الرائحة نفاذة، خليط من طحالب البحر وبول الجرذان، وذكريات قديمة من دم وخوف، وجدوا بداخله بقايا حطب متفحم، ومتعلقات شخصية لمن سبقوهم، وفوارغ علب سجائر وكبريت، وبعض العبارات المحفورة على الصخور البارزة من جدران الكهف، مثل:

-"لا يأس مع الحياة، ولا حياة مع اليأس" و "تبات نار تصبح رماد" و "يفوز بالملذات كل مجازف".

أشعل عمران مصباحًا، وراح الضوء الأصفر يكشف عن جدران متآكلة، ورموز محفورة من أيام التهريب الأولى.

قال:

- **هنا مات خالد، وعبارة ٢٦-x مرقمة بالأسود، لا ترجع فالبحر أقرب من الجحيم.**

الذكرى الخالدة لفقيد الشباب سامح من العياط، أستحلفك بالله كل من يلمح اسمي يقرأ آيات من القرآن لروحي، أمامه يكتب شاب أسود اللون تبدو ملامحه إفريقية، يقول:

- **يا ليت تجار الرقيق سرقوا جدي وباعوه للعرب، لو حدث هذا لعافاني من الموت.**

يبدو أن هذا الكهف لم ينقطع رواده، ولم تعد العفة أنظمة للبلاد، ثم وقع اسمه مبينًا للوقت والزمن، وهنا ظهر ما يكابدونه من عناء في البحث عن موضع لتسجيل أسمائهم في ذاكرة مقرونة بالتاريخ. جمعت شتات شجاعتي، وعبرت إلى رمال الصحراء، والتقطت قطعة فحم، وكتبت على الجدار عبارات خرجت من جراح الوجع

وذكر ما بداخلي لكلمات أغنية ساخرة، من لحظات الخوف والفزع التي أنهكت الجميع: "قتالة الغربة قتالة"، "والله يا غالية فراقك على عيني".

تقرفصت في الزاوية أحتضن ركبتي، أسمع أنفاس الأطفال المتقطعة، وبكاء سيدة تهمس باسم ابنها المفقود في الفوضى، ثم همهمة كأن شخصًا يهمس من عمق الكهف، ارتجفت، نظرت إلى عمران الذي أطفأ المصباح فورًا:

- هل هناك غيرنا هنا؟ اصمتوا. الكهف له مخرج خلفي أعرفه جيدًا.

صمت، ثم حركة. ظِلٌّ لشخص يظهر في آخر الممر يتقدم ببطء حتى وجهه ينكشف في ضوء القمر المتسرب من شقوق السقف. رجل هزيل، كث الشعر، بعين واحدة، وجهه كأنه خرج من الجحيم يحمل بقايا جراح قديمة، وصوت بحة غريبة.

قال بصوته مبحوح:

- ليس كل من دخل الكهف خرج.

ركضت نحوه كطفل تشبث به، تراجع الجميع.

وسأله عمران:

- من أنت؟

رد الرجل:

- أنا كنت مثلكم زمان، جاءوا بي هنا سنة ٢٠١٩.

ركبنا البحر لكن المركب انقلب، من نجا أرجعوه، وأنا اختفيت، هذا الكهف علمني الكثير. سكت ثم اقترب أكثر، وأكمل:

- البحر لا يأخذ، البحر يكشف الواشي بينكم، وفيه شخص لن يذهب معكم هو يتقاضى مالًا عن كل رأس.

سادت الفوضى، الكل صار ينظر إلى الآخر بعين شَكٍّ، شعرت بعرق بارد يتصبب على ظهري.

قال عمران بغضب:

– قل من؟ من الذي أوشى بنا؟

أشار الرجل بعصاه نحو الزاوية، نحو سامي، الشاب الهادئ صاحب الطاقية السوداء.

-10-

"الواشي"

ساد صمت خانق والجميع يحدق في سامي، وكأن الكهف يحبس أنفاسه معهم، واقترب عمران منه ببطء وعيناه تشتعلان ريبة:

- ما معنى هذا؟ أنت كنت صامتًا طول الوقت، تسمع أكثر مما تتكلم، دائمًا آخر واحد في الصف، وكنت تختفي بالساعات!

- هل تصدقون رجلًا مجنونًا يعيش في كهف؟

تدخل الرجل الغريب، وصوته أكثر حدة:

- أنا لست مجنونًا، أنا مثلك.

– سامي، أعرف اسمه جيدًا، ليس غريبًا، سمعت عنه زمان في جهاز الساحل، كان يعمل وسيطًا في زوارة.

أتى صوت امرأة من الخلف:

- معنى ذلك أن سامي هو من أوشى بنا؟ أخبر العقرب عن مكان التخزين؟ هو الذي جعل البوابة الليبية مؤمنة جيدًا!

صرخ طفل:

- بابا مات بسببه!

تعالت الأصوات، والهواء في الكهف صار خانقًا، الأعين تمتلئ بالدموع والشك، والغضب يزداد. تراجع سامي خطوة، ثم أخرى.

قال بصوت مرتجف:

- أنا كنت مضطرًا لفعل ذلك، والله كانوا سيقتلونني، هددوني بصور لأختي، كنت مضطرًا، سامحوني.

صفعه عمران صفعة أطارت الطاقية من على رأسه:

- وحياتنا؟ أليس عندنا أهل؟ ألا نخاف؟

تقدمت ببطء، عيني على سامي، وصوتي هادئ لكنه مزلزل:

- من خان على البر يجب أن يغرق في البحر.

دَوَّى صوت قوي من الخارج:

–افتحوا، شرطة غفر السواحل الليبي.

ارتعب الجميع، والكهف يهتز تحت الأقدام، والماء يتسرب من الشقوق؛ كأن البحر نفسه قد انقضَّ ليبتلعهم.

صرخ أحدهم:

- هو قد أبلغهم، انتهى.

ركضوا جميعًا إلى المخرج الخلفي، الدرب الضيق المؤدي إلى الصخور المطلة على البحر، في تلك اللحظة تجمَّد سامي في مكانه.

نظر إلـيَّ، وقال:

-   أنا آسف!

ثم ركض عكس الاتجاه، نحو باب الكهف الأمامي، حيث تقترب الأصوات، واختفى.

-11-

"قوارب الموت"

اندفع الجميع عبر النفق الصخري الضيق المؤدي إلى الشاطئ الخلفي، تعثرت الأقدام بالحجارة؛ لكن الخوف كان يدفعهم بالسوط.

كنت أقودهم، أتلفت يمينًا ويسارًا، محتضنًا الطفل الصغير الذي رفضت أن أتركه، عمران يسند شابًّا جريحًا في قدمه المرأة التي بكت قبل قليل، تشهق الآن كأنها تسحب روحها لأنفاسها. وصلوا للفتحة الأخيرة، هناك. البحر ليلًا ممتد كغول نائم، أمواجه تتنفس بصوت هادئ لكنه مريب، والقمر يخشى أن يضيء على الهاربين. ركضوا عبر الصخور، الأقدام تنزلق، ثم ظهرت القوارب الخشبية؛ فاندفعوا معًا نحو البحر. حشود متدفقة، ومجموعات كبيرة تقف على الشاطئ تنظر لبعيد، والبحر

تعلو أمواجه بريح صرصر عاتية بين المد والجزر، تهرب من واقع أليم وفقر مدقع، إلى مصير مجهول لربما تتحقق فيه الأمنيات.

جاءوا من كل بقاع الأرض التي ضنت بالخير على أبنائها، أمِلُوا في الهجرة والهروب إلى روما بلاد الصقيع، تأمُل في حياة جديدة، فروا من شرار الخلق لأعماق البحر، المراكب المصفوفة تنتظر توزيع جماعات من يركبونها، تعالت سحابات الهمهمات إلى السماء المليئة بالغيوم، وسادت حالة من الترقب والانتظار، تقيد الواقفون في أماكنهم إلى أن فكَّ صوتٌ عالٍ صمتَ الترقب:

-من يسمع اسمه يذهب للقوارب التي تقف في أول صف هناك.

أقلعت القوارب محملة بأجناس مختلفة من البشر، سحبتها الأمواج إلى داخل البحر، جاء الدور علينا، بمجرد أن سمعنا أسماءنا أمرنا رجل بصوت أجش مبحوح بالركوب على ظهر مركب صغير، حسبناه قاربًا للنجاة

وجسرًا للعبور من جحيم الفقر إلى نعيم الغنى وتحقيق الأحلام.

قال زاعقًا:

-أنتم، اركبوا هذه القوارب.

اندفعنا نحوها بسرعة حاملين أمتعتنا وبقايا الزاد، واتخذت مكانًا لنفسي ولسليم، وانحشر بعضنا في بعض، اندفع المركب في المياه التي سحبتنا بفعل موج البحر، بينما هي تجري بنا كأمواج كالجبال مع هبوب ريح عاصفة، تدفعنا دفعًا نحو مصير مجهول، وأنا أردد:

-"باسم الله مجريها ومرساها".

جلس أحد الركاب إلى جواري، يكتب وصيته الأخيرة؛ ظنًّا منه أنه لن ينجو، ولن يصل إلى شطوط أوروبا، تملكتني قُشعريرة، ازدادت خفقات قلبي، ودبَّ الخوف في صدري، هربنا من صحراء اليأس إلى جنات الصقيع ننشد فوائد السفر السبعة.

سألني من بجواري:

- من أين أتى كلُّ هؤلاء؟

تداعت ودارت في رأسي الأفكار، كنت أريد أن آخذ حقي من الحياة عنوة، أريد أن يفيض الحب من قلبي فينبع ويثمر، ثم آفاق كثيرة لا بد أن تزار، ثم ثمار يجب أن تقطف، وكتب كثيرة قرأتها، وهناك صفحات بيضاء في سجل العمر لا بد أن تدون، سأكتب فيها جملًا واضحة بخط جريء، لم تعد بلادنا الواسعة تتسع لنا، كأني بهم ينتظرون من زمن بعيد، ما زالوا يتحدثون عن الرخاء والناس جوعى، وعن الأمن والناس في ذعر وخوف شديد، وعن صلاح الأحوال والبلدان تعيش في خراب!

فقد تحقق الظن، ووقعت الواقعة، وخابت الآمال، وبلغت القلوب الحناجر، حلَّ الظلام وابتلعنا هدير البحر ممتزجًا بصوت الرعد والعواصف، مرت ليالي الملح عصيبة؛ حتى وقعت الواقعة، ولم ينجنا صياحنا من الغرق شيئًا، غلبتنا أمواج البحر والريح العاتية، حملتْ

مركبًا أمامنا قلبته فوق رءوسهم وسقط من فيه، وعلت الصرخات وارتفعت الأيادي تحاول الإمساك بطوق النجاة:

- الحقونا!

أبدان تغطس وتقب، وعيون جاحظة فاضت أرواحها، وصعدت إلى ملكوت بارئها، غرقوا في القاع، وحاول البعض ممن طفت أجسادهم الهزيلة فوق سطح المياه العوم والسباحة ومغالبة الموج، وعيون الخائفين من تجمع الطيور فوق رءوسنا. حاولت جاهدًا التغلب على خوفي، مع طلوع الشمس نخاف من السقوط والظلام ونصم آذاننا لكيلا نسمع الآتي الذي لا يُسمع.

حاولت التغلب على ضعفي والتماسك ومواجهة خوفي، لكنه تغلب مني وشدني إلى الأعماق، شربت من الماء المالح غصبًا عني، وابتلعني البحر وغبت عن الوعي، حتى أحسست بيد تمسح وجهي، وجدت طاقم انتشال الغرقى، ووجدت رسالة طافية لذلك الشخص الذي لا نعرف اسمه، وقد أذاب ملح البحر ملامحه، بينما ظلت كلماته المنقوشة على ورقة مهترئة تحكي قصته وقصة آلاف المهاجرين

الذين فروا من جحيم اليم، مخلفين وراء ظهورهم الفقر والبطالة في بلادهم.

-12-

"رسائل لم تصل"

حاولت جاهدًا قراءة ما كتبه في رسالته، سمعت صوته ألمًا مزدوجًا بنحيب البكاء، يقول:

- "أنا آسف يا أمي لأن المركب غَرِقَ بنا ولم أستطعِ الوصول إلى هناك، كما لم أستطع إرسال المبالغ التي استدنتِها لكي أدفع أجرة الرحلة. لا تحزني يا أمي إن لم تجدي جثتي، فبماذا ستفيدك الآن إلا تكاليف نقل وشحن ودفن وعزاء أنتِ في غِنًى عنها. آسف يا أمي، إن الحرب وقعت، كان لا بد لي أن أسافر كغيري من الشباب، مع العلم أن أحلامي لم تكن كبيرة كالآخرين، كما تعلمين كل أحلامي كانت بحجم علبة دواء للضغط، وثمن

تصليح أسنانك. بالنسبة للون أسناني الآن فهو أخضر بسبب الطحالب العالقة في فمي، ومع ذلك هي أجمل من أسنان من لا يشعرون بنا من حكامنا الذين باعوا شعوبهم. آسف يا حبيبتي لأنني تركت لكِ بيتًا من الوهم، كوخًا خشبيًا جميلًا كما كنا نشاهده في الأفلام، كوخًا فقيرًا بعيدًا عن البراميل المتفجرة، وزوار الفجر، والسجن والتعذيب في السجون والموت المفاجئ، بعيدًا عن الطائفية والانتماءات العرقية التي دمرت عراقنا الحبيب، وصراخ الأمهات الثكلى، وصراخ الأطفال الجوعى، وبعيدًا عن شائعات الجيران عنا. أنا آسف يا أخي لأنني لم أستطع إرسال الخمسين يورو التي وعدتك بإرسالها لك كل شهر لتدفع مصاريفك في الجامعة قبل التخرج. أنا آسف يا أختي، لم أرسل لكِ الهاتف الأيفون الحديث الذي يحتوي على

التقنيات الحديثة أسوة بصديقتك علياء ميسورة الحال. آسف يا منزلي الجميل لأنني لم أعلق معطفي خلف الباب كما كنت أعتاد ذلك. آسف أيها الغواصون والباحثون عن قصص المفقودين ومعاناتكم طوال فترة البحث عنا، فأنا لا أعرف اسم البحر الذي غرقت فيه؛ فقد غموا أعيننا بعصابة سوداء لكيلا نعرف من أين نحن ركبنا؟ اطمئني يا دائرة اللجوء فأنا من الآن لن أكون حملًا ثقيلا عليكِ، ولن تحتاجوا إلى كتابة اسمي في الكشوف مع الهاربين. شكرًا لك أيها البحر فقد استقبلتنا وحملتنا دون فيزا أو جواز سفر، وشكرًا للأسماك التي ستتقاسم جسدي، ولن تسألني عن ديني ولا انتمائي السياسي. شكرًا لقنوات الأخبار التي ستتناقل خبر موتنا مدة خمس دقائق وربما تزيد وفقًا للظروف المتاحة والمساحة المحددة

للحديث عنا كل ساعة لمدة يومين، أو ثلاثة. شكرًا لكم جميعًا لأنكم ستحزنون علينا عندما تسمعون الخبر عبر وسائل الإعلام التي ستجد فينا مادة لإلهاء الناس عن موجة الغلاء التي تجتاح البلاد، وما يجري في غزة من دمار واغتصاب للأرض وانتهاك لحقوق الإنسان، وما يجري بين إيران وإسرائيل. ستقول المذيعة الحسناء ووجهها تكسوه ابتسامة حزينة:

- غرق قارب يحمل مهاجرين غير شرعيين قبالة سواحل جزيرة "لامبيدوزا" الإيطالية، ووفاة ثلاثين شخصًا بينهم عشرة أطفال، بعد محاولة عبور من ليبيا. أنا آسف جدًّا لأنني غرقت، سامحوني جميعًا فكلنا نسافر وحدنا في نهاية الحياة، مثلنا تمامًا يولدون ويموتون، وفي الرحلة من المهد إلى اللحد يحلمون أحلامًا بعضها يصدق وبعضها

يخيب، يخافون من المجهول وينشدون الحب، يبحثون عن الطُمأنينة في الزواج والولد. لكن، هل تحقق ما يتمنونه؟

-13-

"النعوش العائمة"

لم أكن أنظر إلى البحر كما تعودت، بل أرى نعوشًا عائمة على سطحه. أخذتني الحيرة أن هؤلاء لا يغرقون مرة واحدة، بل يقتلون على مهل، مرة في البحر، ومرة في الصمت، وأخرى حين تغرق معهم أسماؤهم. شيء ما جذبني نحوه، الجسد كاملًا يطفو ببطء، كأنه خرج للتو من نوم ثقيل، وتجَمَّد في مكانه.

الأجساد فوق الماء على ظهرها، الوجوه مرفوعة نحو السماء، الأفواه مفتوحة، كمن يحاول أن يقول شيئًا ولم يجد هواء. العيون شاخصة متسعة، لا دموع، لا رجاء، ولا حركة. نظرت إليها كأنني الشاهد الوحيد في محكمة بلا قاضٍ تحملني الأمانة. الجلود شاحبة، تميل إلى اللون الأزرق، كأنَّ جسدًا تعلَّم لغة البحر سريعًا، واصطبغ بلونه.

البطون منتفخة بارزة تحت قمصان ممزقة، والأذرع ممدودة تطلب الاستغاثة، والأصابع منقبضة تحاول الإمساك بالحياة رافضة الموت والغرق. الملابس ملتصقة بالجسد، والشعر يطفو حول الرأس، ينتشر بهدوء مخيف.

لو نظرت إلى الجسد لظننت أنه في نوم عميق، الأسماك تتجه نحو الوليمة لتلتهمها، والبحر يتحول لونه لأزرق دموي.

الطيور ترفرف بأجنحتها لتهبط وتنقر مرة ومرتين، ثم تطير. أدرت وجهي سريعًا عن هذه اللوحة المؤلمة التي عَلِقَتْ بداخلي؛ فأدركت في هذه اللحظة أنهم ليسوا جثثًا بل أدلة، وأنا شاهد عليها.

أنا الآن في قلب المركب لا أرى البحر فقط، بل أرى ما بعده.

أرى النعوش العائمة التي سمعت عنها، أرى وجوهًا تطفو بلا أسماء، أرى الرحلة تتحول من حلم إلى شهادة.

- ١٤ -

"جنازة البحر"

مشهد جنائزي رهيب تشيعه الغِربان بالسَّوَاد والصراخ والنعيق، تصطف فوق الجثث العائمة وتحركها الريح. لحظات وتقترب أسماك القرش لاستقبال النعوش العائمة.

المشهد جنازةٌ بلا أرض، ومأتمٌ بلا صلاة. السماء انخفضت حتى لمست الماء وارتدت حدادَها الكامل، بينما اصطفت الغربانُ فوق الجثث العائمة سوداء كالفواجع، تنعق لا كطيور؛ بل كنُذُر أخيرة. أجنحتها تفتح وتغلق كستائر مسرح كارثي، وكل صرخة منها كانت نعيًا يُتلى على أرواح لم يُعْرَفْ لها اسمٌ.

الريح تحرك النعوش العائمة ببطء جنائزي، تدفعها قليلًا ثم تتراجع، كأنها تخشى لمس الموت طويلًا.

الأجساد تتمايل، منتفخة، شاحبة، فقدت ملامحها وصارت أشلاء، علامات على فشل اليابسة وخيانة الطريق.

بعض الرؤوس مائلة كأنها ما زالت تنصت، وبعض الأيدي ممدودة كرجاء تأخر عنه العدل، ومن الأعماق بدأت الظلال تدور.

أسماك القرش تقترب في صمت احتفالي، لا بعجلة المفترس، بل بوقارِ جلادٍ يعرف أن دوره قد حان، زعانف تشق السطح، ترسم دوائر حول الجثث، كأن البحر يسلم أبناءه الأخيرين لمصيرهم.

لم يكن الافتراس هو الرعب، بل هذا النظام البارد، الغربان في الأعلى، وسمك القرش في الأسفل، والموت في المنتصف. جنازة مكتملة الأركان، بلا شاهد سوى البحر. أقف لأرى ما كنت أظنه خيالًا، فإذا به حقيقة أشد حضورًا من الجسد. أرواحهم تصطَفُّ فوق الأجساد، لا تمشي ولا تطفو، بل تقوم في نور كثيف، أبيض، جارح، كأن الضوء نفسه قرر أن يشهد الجنازة.

أنوار شديدة تعلو النعوش العائمة، تخترق السواد الذي خلفته الغربان، وتكسر دائرة القرش. الضوء لا يدفن بل يكشف. وجوه بلا جراح، ملامح عادت كما كانت قبل البحر، قبل الجوع، قبل الخديعة. يقفون في صمت مهيب، ثم ينظرون إليَّ، إليَّ وحدي، كأن البحر كله قد انصرف، وبقيت أنا!

تكلمني الأرواح بلا أصوات، كلماتها تدخل صدري مباشرة، كرسائل لا تقرأ بل تحمل.

يقولون:

- لا تنسَ.

ويقولون:

- أُكتبنا كما كنا، لا كما انتهينا.

ويقولون:

- لسنا أرقامًا، نحن طرقٌ أغلقت، وأحلامٌ لم تتحقق.

أشعر بثِقَلِ الرسائل فوق كتفي، كأنَّ كلَّ روحٍ وضعت اسمها في يدي، وأجبرتني أن أكون الذاكرة الأخيرة؛ لم أعد مجرد ناظر.

صرت شاهدًا على الحدث، حارسًا للحقيقة، رسولًا للغرقى، أمشي بما حملته من نور وألم، أعرف أن النجاة لم تكن في الخروج من البحر، بل في ألا أخرج صامتًا.

-١٥-

"بكائية السماء"

الحزن يسيطر على الكون، والبحر يشارك السماء في تشييع جنازته المفتوحة. تكدست السحب في الأعالي ثقيلة كقلب أمٍّ مفجوعة تبشر برعد وأمطار وعواصف، لا كغضب عابر، بل كإعلانِ حدادٍ كوني.

فجأة، شقَّ الظلامَ شعاعٌ أزرقُ، نزل من قلب السحاب كجرح من نور، لا يشبه البرق، ولا يخضع لقوانين العاصفة. كان أزرقَ باردًا، عميقًا، كأنه آتٍ ممَّا وراء الحياة، يلامس الأجساد الطافية؛ فيرتجف الماء، وتصمت الريح، وتخفض السماءُ رأسَها.

لم يكن الشعاع الأزرق نورًا فحسب، بل كان لغة، حتى لامس الماء، لم يضئه بل فتحه؛ كأن البحر تحول إلى صفحة شفافة تُقرأ ولا تُرى.

تجمدتُ في مكاني، لم أسمع أصواتًا، لكنَّ المعاني تدفقت

داخلي، مقاطع متداخلة بلا حروف، وحمل أثقال دفعة واحدة.

اقترب الشعاع من الأجساد الطافية؛ فارتفعت الأرواح فوقها لا كأشباح، بل كذاكرةٍ خفيفة فقدت ثِقَلَ الجسد.

حين لامس الشعاع صدري؛ انفتح من داخلي جرحٌ لم يُشفَ منذ أول غريق رأيتُه هنا.

أدركت أن الشعاع الأزرق مطلبه أن تُروى الحكاية، لا بالأسماء فقط؛ بل كيف كتب الموتُ نهايتَنا قبل أن نموت.

ارتعش قلبي، أدركت أن الشعاع لا يختارني، بل يترجمني.

وقفت مذهولًا، فأنا لست نبيًّا ولا منقذًا، بل شاهدًا يتعلم لغة الموتى؛ كي يفضح الأحياء.

ومع كلِّ ومضة زرقاء، كان اسم يُزرع في ذاكرتي، وصور تختزن في صدري، كأن البحر يطلب مني التوقيع على عقد أبدي.

ومنذ تلك الليلة، لم أعد أسمع البحر كما كان صوتًا أقرؤه! فقد شاهدت السماء وحزنت كثيرًا. شاهدت القوارب تخرج محمَّلة بالأحلام، ولم ترسل ريحًا تعيدها، ورأيت البحر وهو يفتح فمه.

فكل روح سقطت تحت سمائها المفتوحة لم تقُلْ كفى. لكن

حين انتهى الفعل وبقي الأثر؛ أدركت قبح الجريمة عند كل غروب تتماهى مع الأفق البعيد وتلتحم بالبحر، عند معاودة الجريمة تُكَفِّر عنها بالحزن، وفجأة أرسلت شعاعًا عوضًا عن صمتها.

حينئذٍ وقفت الأرواح تحت هذا الشعاع، فهمت أن أرواحهم قد سكنت الفردوس وما حدث كان سموًا لدرجاتهم في السماء، وأدركت أنها لن تنساهم!

ومنذ ذلك الحين، لم يكن الغروب جمالًا طبيعيًّا، بل محكمة مفتوحة، تقف فيها السماء قاضية، والأرواح شهودًا، وتدعوني أنا "موسى" لأكتب الحكم.

- 16 -

"الهروب من الحقيقة"

حين أدركت أن السماء رفعت قدْرَهم، لم يكن الانكسار أن الأرواح ماتت، بل لأن الكون نفسه رآها تموت، واختار أن ينتظر الغروب. وقفت تحت السماء المثقلة، والشعاع الأزرق يمر بي كتيار بارد، لكن هذه المرة لم يحمل رسائل فقط، بل حمل اتهامًا، فهمت فجأة أنني لست المختار بل البديل.

الصمت حين وقع ليست السماء فقط، بل شارك فيه الكون كله والبشر جميعًا، الآن يتم استدعائي لأدفع الفاتورة وحدي.

تمنيت في سري لو لم تمتد نحونا يد الموت، ولمَا اجتاحني الندم، ولم أقف في الغروب منتظرًا، بل واقفًا للاستجواب.

صار الشعاع الأزرق ثِقَلًا لا نورًا، وصارت الأرواح حين تقترب لتعيد فتحه بدلًا من أن تواسيه.

كيف أعرف أن انكساري ليس ضعفًا؟ بل بداية لعمر كامل سيُستنزف في الشهادة، لقد أصبح عبئًا أخلاقيًّا.

وفي ذلك المساء جاء الغروب مبكرًا كأنه يطاردني، ومع كل غروب شيء فيه لا يعود. أدرت ظهري للأفق، وسرت عكس

الضوء، رافضًا الموعد الذي لم أتوقعه يومًا، لكنه صار استدعاء لي كل مساء.

قلت لنفسي:

- لِمَ أقف اليوم؟ لم أكن أنا ترجمان الحزن، هل نفتح صدورنا للسماء كي تغسل ذنوبنا؟

لكن السماء لم تتركني، بدأ لونها يتغير ببطء أحمر ثقيلًا كجرحٍ قديم، والسحب تتراكم لا فوق البحر بل فوق قلبي.

كانت بكائية ترج الكون، تملؤني، تصاحبني، وكلما ابتعدت يزداد الصمت كثافة، كأن الكون يحبس أنفاسه بانتظار قراره، وحين ظننت أنني أفلَتُّ؛ انشق الضوء من بين الغيوم وظهر الشعاع الأزرق. لم ينزل هذه المرة من الأفق، بل التفَّ حولي، طاردني، حاصرني، كاعتراف يرفض الهروب.

صرخت لأول مرة:

- لست نبيكم ولا كاهن موتاكم، أنتم شاركتم؛ فلماذا أنا؟

لم تعجبه الأصوات، لكن السماء بكت. هطلت الأمطار بلا

رعد دموعًا صامتة، ارتجف الشعاع الأزرق كأنه يتألم. اقتربت الأرواح، تطلب الشهادة والخلود. أدركت في هذه اللحظة أن هروبي ليس من الطقس بل من الحقيقة. إن الصمت حين يقع لا يختفي، بل ينتقل. في هذه اللحظة انكسرتُ، جثوتُ على ركبتي، والشعاع يمر عبر صدري كشرخ مفتوح، والغروب ينسحب ببطء في وقت ترك فيه الليل مبكرًا، ومنذ ذلك المساء لم يعد الغروب موعد الأرواح فقط، بل موعدًا لانكسار يتجدد.

-١٧-

"ليالي الملح"

غطتنا شبورة قاتمة ابتلعت كل شيء من حولنا، وأسراب من الطيور السوداء في السماء؛ انقبض قلبي، وابتلعنا التشاؤم، ينذر باقترابِ حدثٍ ما سيقع لا محالة، ارتفعت أصوات النوارس مختلطة بنعيق غربان سوداء اقتربت من رءوسنا، استطالت مناقيرها وهي تحاول التهامنا، كأننا خبز تأكله الطير، انتابتنا الحيرة من هول المشهد.

تساءلوا:

- بيننا وبين إيطاليا فقط ربع ساعة؟

اجتهد قائد القارب ليعثر على الإجابة والتعبير المناسب بلا طائل، هز رأسه نافيًا وقد أسهب في حركة

يديه ليفصح أن ثمة مركبًا في المياه العميقة ينتظرنا على ميمنة القارب. انحنيت بشدة بجذعي للخارج حتى طفت على الماء مسبحتي الخشبية المتدلية من عنقي، أحكم بقبضتي ياقة قميص الشاب العارف ببواطن الأمور، حمدت له صنيعه لسامي لأنه يعلم بإصابة قدمه ومعاناة سامي منها، وكنت أرفع رأسي المثقلَ قائلًا له وأنفاسي تتلاحق:

- أنت رجل مبروك.

كررتها مرارًا، وقلت له:

- إن هدوء البحر ووداعته تكريمٌ لك ولبركتك.

ثم أومأت برأسي لمسبحتي الطافية، ولمصحفي الذي بجيبي بجوار قلبي.

وأقسمت بالله:

- أنت بالتأكيد بركة.

ضحكت باستياء، وواصلت حديثي معه للمرة الثالثة:

- "العجيبة أنني رأيت الموت مرتين وما زالت روحي متشبثة بجسدي".

في الجانب الأيسر يقاوم سامي، يعافر تقلصات فخذه، يتعلق بيد سليم الممدودة له، كان سليم يشحذ همته ويهون عليه المسافة.

يقول:

- قربنا للمركب.

يرمي سليم بصره في الماء؛ لا يلمحه. يضيق صدره، يشفق على صديقه فتعتريه رغبة جامحة ليقفز مكانه.

يرجع إليه:

- هانت!

لحظات قليلة ويعاود الكرة؛ ليسترق النظر في البحر ويكرر أكذوبته:

- خلاص يا سامي، هانت!

يقاطعه سامي:

- أنا انتهيت.

يستسلم سامي للماء، ترتخي أعضاء جسده، يلمس سليم سكون حركته من ثِقَلِهِ الضاغط على ذراعه. يفزِع، يطبق على يده التي كادت تنزلق،

يصرخ فيه:

- أين العزيمة؟

يغمض سامي عينيه بوهن، يرن صوت أستاذه بالجامعة زاجرًا:

- كيف تفعل هذا يا رجل القانون؟

يبكي سامي بحرقة، ويزعق:

- **هم أجبروني!**

يبادله سليم الصياح:

- **ليس بيدك، كيف؟ يدي ممدودة لك.**

عند ولوجهم المياه العميقة، زَفَّ إليهم قائد القارب خبرًا أخيرًا، اقترابهم من المركب، ثم راح يحث سامي الشاب العارف ببواطن الأمور بعينيه الغاضبتين برفع جسديهما فوق الماء على قدر استطاعتهما.

بتؤدة وحذر، صعدوا المركب فرادى، أحدهم لفرط عجلته سقط في الهواء بين القارب والمركب، استغاثهم. يرونه يغطس ويقب، يصارع الغرق. تقاعسوا عن نجدته رغم لهفتهم عليه، ارتبكوا داخل المركب، تصادموا في الظلام، عثروا على بقايا طوق نجاة، طوحوه؛ تعلق به، وألقوا له حبلًا تشبث به.

طال انتظارهم للفوجين المتبقيين، ارتابوا، حاول قُوَّادُ المركب الثلاثة الاتصال بالأعوان عدة مرات دون فائدة، طالب بعضهم بعدم الانتظار.

اعترض أحد قُوَّادهم:

- لن نتحرك قبل أن يتصلوا بنا من البر.

سمعوا طلقات رصاص، لحظات ورن الهاتف، الجميع أصغوا السمع بقلق، ضجَّ محرك المركب بفرقعات متتالية اختلطت بطلقات رصاص حرس السواحل التي شاهدوا وميضها. برشاقة دارت مؤخرة المركب نصف دائرة لتستقبل جهة السير، لمحوا فوجًا يتهادى بقاربهم نحوهم، اختلط صياحهم برجائهم:

- انتظروا، انتظروا، انتظروا.

لم يكترثوا بهم، انطلق المركب بالمائة والخمسين فقط. نفحات هواء البحر الباردة تصطدم بأجسادهم، والثياب المبتلة الملتصقة ترجفهم، عكفوا على النفخ في أيديهم

وفركها، جلست في منتصف المركب وبأطراف أصابعي المتيبسة حررت قدمي من الكيس البلاستيكي، يشغلني أمر رفاقي الخمسين المتخلفين، أسأل عن مصيرهم، يهز الشاب العارف ببواطن الأمور كتفه، ويقلب شفته السفلى بلا مبالاة.

ويقول:

- من في البحر قبض عليهم، ومن على الشاطئ هربوا في الصحراء الواسعة.

دقائق قليلة وتكدست السماء بالغمام، اختفت النجوم، أبرقت السماء وأرعدت، سال ماؤها، اندفعت عاصفة هيجت غضب البحر، تمر ساعتان والمركب يمخر بعسر، أمسكت بحافته مقرفصًا.

وسألت العارف ببواطن الأمور:

- أهذه هي عادته؟

- نعم، وأشرس!

الأمواج العاتية تتلقف المركب، تدحرجهم بجوفه. دارت أعينهم، صراخهم طغى على صخب البحر وهدير أمواجه. أبصر سليم موجة عالية تزحف نحوهم، صرخ بكل قوته، أُغشي عليه، لحقه سامي قبل ارتطامه بحافة الماء، جلس متربعًا في بطن المركب، وقد أسند ظهره بسحارته الأمامية، وشد فخذه إلى أن استرد وعيه.

عند اندفاع كل موجة نحوهم، يولون إلى الجانب الآخر، يتكدسون في جانب واحد.

قُوَّادُ المركب ينهرونهم:

- سوف نغرق يا همج، اثبتوا كلًّا في مكانه، تشبثوا في الحلق.

طاف أحدهم بهم، ليريهم مواضع الحلق المعدني المثبت بجانبي المركب وكيفية التشبث بها. طالت المياه أرساغ الأقدام، نزحوها، انتبهوا لحشرجة صوت المحرك.

رفع أحد الثلاثة غطاءً يتوسط صندرة المؤخرة، هبط، اختفى داخله؛ توقف المحرك نهائيًّا.

امتقع وجه سليم، ونظر إلى الشاب العارف ببواطن الأمور الذي فهم ما يدور في خَلَدِهِ.

قال:

- أحداث بسيطة، لا داعي للقلق.

تمر ساعة عصيبة، لم يكف الموج خلالها عن حملهم وطرحهم، ولم تقلع السماء عن مطرها، والمحرك عن معاندته.

أطلَّ الرجل برأسه من فوهة الصَّندرة الخلفية، صاح لزميليه، تبيَّن له أنهما في المقدمة لم يسمعاه، رفع يده ثم قبض بسبابته وإبهامه معًا.

برمهما، وقال:

- دور، دور.

استقبلت الكفوف المفتوحة السماء، ارتفعت الأذرع في ضراعة تبتهل، جثت الركب في الماء.

محاولات بسيطة وعاد صوت المحرك مجلجلًا؛ هللوا! تدفقت الدماء في عروقهم، يَمَّنَ المركبُ وجهته، تقدم ببطء ملحوظ، أراد الرجل العودة لفحص المحرك، اعترضوا طريقه، منعوه من الاقتراب من المحرك، لم يستمر طويلًا، دبت فيه حشرجة ثم توقف. اندسَّ الرجل مرة أخرى في الفوهة؛ ليصعد يائسًا. باءت كل اتصالاتهم بالرجل الليبي بالفشل، لم يهنئوا بصفاء الجو المفاجئ، إصرار المحرك على صمته قتل فرحتهم، تكبكبوا مذهولين؛ تفرقوا.

تحلقوا حول ابن نصر الدين الذي أغمض عينيه يدعو متوسلًا:

- أمِّنُوا.

رددوا خلفه بخشوع:

– يا رب نجنا وفرج كربنا، اللهم أمدنا بعون من عندك، آمين.

في ركن قصي يقبع سليم منفردًا منزويًا، يرفع يديه في دعاء، يلح:

- لن أقول يا رب نفسي نفسي، لكن يا رب أبي وعجزه، أبي وديونه!

ويجهش بالبكاء:

- يا رب، أختي وأولادها!

كان سامي على مقربة منه يقرأ حركة شفتيه، يبكي لبكائه، يمسح دموعه بكُمِّ قميصه المبتل، بعد إخفاقات متتالية نجحوا في الاتصال بالرجل الليبي، شرحوا له موقفهم، قبل أن يتم كلامه تلاشى صوته؛ فهموا من حديثه اللجوء إلى أقرب جزيرة.

أطرق الرجل الهادئ الذي يبدو أكبر الثلاثة سنًّا، ثم قال:

- ليس هناك غير جزيرة "لامبادوزا".

أسرع الثلاثة إلى المؤخرة وعكفوا على المحرك بهمة، كانوا أحيانًا يطلبون العون من الشاب العارف ببواطن الأمور، الوحيد الذي ظل بين الفارين متماسكًا.

في مقدمة المركب وثب أحد الأفارقة عاليًا، صرخ منتشيًا، يخونه صوته المبحوح، يحثهم لإبصار الضوء الخافت.

يبرطم:

- زير. إيرث. لامبس!

استقبلوا الوجهة التي أشار نحوها، اشرأبت أعناقهم في المنتهى، شاهدوا الضوء، عاثت الظنون برءوسهم؛ تسمروا. يجزم أحدهم ليزيل الشكوك التي علقت بزملائه، الأرض، الأرض. يدلق آخر خوف، لعلهم حرس السواحل، طمأنهم الرجل الهادئ أكبر الثلاثة سنًّا،

وقال:

- **لا، هذه جزيرة "لامبادوزا".**

وضح اصطفاف المصابيح بمحاذاة شاطئ الجزيرة، اقتربوا بحذر، المحرك الخرب يفضح تسللهم. رغم كثرة أعمدة الإنارة الشبورة والظلام يهيمنان ويفرضان سطوتهما على كل ما يحيط بهم.

يعلن قائد المركب مستاء:

- **أنا لا أرى شيئًا.**

بقوة يصطدم المركب بجبل بركاني يحدث بقاعه شرخًا؛ انبثق الماء بجوفه، دقائق معدودة وحاصرتهم عدة زوارق، كانوا ينذرونهم عبر مكبرات الصوت بعدم الإقبال على الهروب لخطورة المكان الذي اصطدمت به مقدمة المركب. اختلط عليهم الأمر، يقهقه العارف ببواطن الأمور.

ويقلب كفيه قائلًا:

- الخوف علينا، هههههه.

وأسراب الطيور أمامه تحلق في السماء التي ابتلعها الظلام.

-١٨-

"ضوء النجاة"

كانت النقطة المضيئة تقترب رويدًا رويدًا لا بسرعة مركب مسرع؛ بل كأنها كانت تراقبهم أولًا، تتفحص من هم؛ ثم تقرر.

صرخ مالك:

- **نور، أرى نورًا.**

ضمت المرأة طفلها، وقالت بيأس:

- **لعله باب الجنة!**

لكنني نظرت بعين خبرت الغدر:

- **لم أطمئن للنُّور.**

قال آخر:

- هذا قارب حرس سواحل أو مهربين.

الأضواء الأمامية تسطع في وجوهنا حتى أغمضنا أعيننا.

نزل صوت أجش عبر مكبر الصوت:

- أوقفوا القارب ولا تتحركوا.

رفعت يديَّ:

– نحن لاجئون ضائعون، ساعدونا.

تحرك القارب الكبير نحونا ببطء، رمى حبلًا إلينا تسابقوا لتشبيكه.

صَعِدَ رجلان ملامحهم غريبة أشار أحدهم:

– اطلعوا بسرعة.

صَعِدْنا واحدًا تلو الآخر نرتجف من التعب والماء والخوف على ظهر القارب الكبير، جلسنا على أرضية من المعدن البارد، أعطونا بطانيات وقوارير ماء، وقطع خبز

يابسة؛ لكن عيون من أنقذونا لا تقل قسوة عن عيون من طاردونا.

همس سليم:

- هل وصلنا؟

نظرت إلى عَلَمٍ غير مألوف، يرفرف أعلى السارية: ليست هذه هي النهاية، هذه بداية جديدة، وكل بدايتنا كانت مؤلمة.

- ١٩ -

"الجُدران الجديدة"

استغرقت الرحلة عبر البحر ساعات طويلة، كانت الشمس قد بدأت تميل نحو المغيب عندما لاح لهم الشاطئ. لكن لم يكن في الاستقبال وردٌ ولا أعلام ترحيب! هناك سياجٌ معدني عالٍ، وأبراج مراقبة، وصرامة تشبه سجونًا عسكرية. اقترب القارب الكبير من المرسى الخلفي، حيث اصطفت سيارات مصفحة، وعدة رجال يرتدون الزي الرسمي.

نزلوا بسرعة، تفتيش جسدي، تفتيش الحقائب، لم يتبقَ لأحد شيء بدون تفتيش، ثم سُحبنا في طوابير إلى غرفة ضيقة بيضاء الإضاءة، جلسنا على الأرض، رائحة العرق، والخوف، والبلاط الرطب تملأ المكان.

دخل رجل أصلع، يتحدث بلكنة أوروبية، ومعه مترجم قال عبر المترجم:

- أنتم الآن في مركز استقبال المهاجرين غير الشرعيين، سيتم التحقيق معكم، تحديد هوياتكم، وفحص إن كنتم مؤهلين لطلب اللجوء أم ستُعادون.

شهقت المرأة، وسأل عمران:

– هل سنعود؟

رد المترجم:

- إذا لم تُثبتوا الخطر في بلادكم، نعم.

نظرت حولي، الجدران تُشبه سجنًا أكثر منها ممر نجاة؛ لكنني لم أندم! فالجوع هناك كان موتًا بطيئًا. وهنا، على الأقل، هو داخل قفص يرى فيه الضوء، لا العدم في الزنزانة المؤقتة، جلست وحدي، وأخذت أدوِّن على ورقة حصلت عليها من أحد العاملين المتعاطفين.

قال:

- أنا ابن الجوع، ابن سطوح القاهرة، لم أهرب لأعيش؛ بل هربت كي لا أذوب كفُتات الخبز في صناديق القمامة. أعيش لأنني تجرَّأت على الموت. لست مجرمًا بل ضحية عالَمٍ لا يعترف إلا بجوازات السفر.

-٢٠-

"أوراق لا تحمل اسمه"

اقتادوني إلى غرفة صغيرةٍ مع طاولة معدنية وكاميرا مراقبة معلقة في الزاوية. رجل خمسيني ذو ملامح أوروبية جلس على الكرسي المقابل، بجانبه شابٌّ مترجم يتحدث العربية بلكنة مغربية.

قال المحقق، وهو يفتح ملفًّا:

- ما اسمك؟

أجبت بصوت خافت:

- "موسى عبد الحميد".
- السن؟
- ستَ عشرةَ سنة؟

رفع المحقق عينيه إليَّ:

– أتحمل أوراق إثبات شخصية؟

– لا.

سَجَّلَ شيئًا في الملف، ثم قال عبر المترجم:

- كيف وصلت إلى هنا؟

تنهدت، ثم قلت:

– من القاهرة إلى مطروح، ثم السلوم عبر الصحراء، ثم زوارة، وبعدها البحر.

– أدفعت للمهربين؟

– لم أدفع، ليس معي مال، ولكن اشتغلت معهم في المخازن، وفي التنظيف، وأحيانًا في المراقبة.

– هل كنت تعرف أنك تخالف القانون؟

سكتُّ طويلًا ثم قلت:

- كنت أعرف أنني سأموت هناك، فالقانون هناك لا يُطْعِم.

صمت المحقق للحظة، ثم سألني:

- لماذا لم تطلب اللجوء عبر الطرق الرسمية؟

ضحكت بسخرية حزينة:

- في أي سفارة، وأنا غير قادر على ثمن تذكرة المواصلات؟ أنا لا أعرف شكل السفارة!

أغلق المحقق الملف، وقال:

– سيدرسون وضعك، لكن القرار مش سهل، خصوصًا بدون إثباتات، هل تقدر تثبت أنك مهدد في بلدك؟

– أنا مهدد بالجوع، بالشارع، بالموت من دون سبب!

ارتعشت أناملي وأنا أضم يديَّ إلى بعضهما.

قلت بتوسُّل:

- **أنا لست إرهابيًّا ولا حراميًّا، أنا جائع، جائع فقط!**

خرجت من الغرفة لأعاد إلى الزنزانة.

ورقة التحقيق تُرفع الآن للجنة، وتُصبح حياتي بانتظار قرار.. بين الترحيل، أو فرصة جديدة للحياة.

-٢١-

"أيام بلا أسماء"

لم يكن المركز كما تخيَّلته، لا جدران أسمنتية باردة فقط، بل زمنٌ ثقيل لا يمر، وجوه معلَّقة بين الرجاء واليأس، وأحاديث بلغات شتى لا يربطها شيء سوى الخوف من المجهول. وُضعت في غرفة احتجاز جماعي فيها أكثر من ثلاثين شابًّا، بعضهم أفارقة، وبعضهم من الشام، وبعضهم مثلي، لا وطن ولا أوراق. كانت الأرضية صُلبة، والبطاطين خفيفة، والطعام يأتي في أوقات محددة: خبز جاف، وطبق أرز أو عدس بارد، وأحيانًا قطعة دجاج نادرة.

في أول ليلة لم أذق النوم، جلست في الزاوية أضم ركبتي، أراقب الآخرين، بعضهم يبكي، وبعضهم يصلِّي، وبعضهم يحفر في الجدار بأظافره وكأنه يبحث عن مخرج.

تعرفت على "أكرم"، شاب سوري هادئ الصوت، قضى عامًا في البحر قبل أن يُعتقل. كان أكرم يحكي كل ليلة حكاية مختلفة، ليُنسيهم مرارة الانتظار.

"الحكايات تمنع الجنون"، قالها لي ذات مساء وهو ينظر للسقف.

وفي الصباح، كان الحراس ينادون أسماء للتحقيق أو للترحيل، من لم يُنادَ عليه عاش يومًا آخر في الانتظار.

كنت أكتب على جدران ذاكرتي؛ لأنه لا ورقة ولا قلم:
– أنا هنا، لا أنتمي لأي مكان، ولا يملك أحد أن يقول عني 'مرحبًا بك'، ومع ذلك أتنفس".

بعد أسبوعين، صرت أعرف روتين المركز؛ الحصص الغذائية تُوزع بلا تمييز، لكنني تعلمت أن أتسلل لأخذ حصة صديقي المريض.

صوت الحارس "ماركو" هو ناقوس النهار، وصوت الأبواب الثقيلة هو جرس الليل. أحيانًا، يأتون بمُترجم

نفسي، يسألهم إن كانوا بخير. كانوا يردون بابتسامة ساخرة؛ لأن السؤال أصبح مضحكًا، وفي ليلة باردة،

همس لي أكرم:

– سمعت أنك سترحل عن أوروبا، هل معك دليل خطر؟ حاول تثبت أنك كنت مهددًا".

أطرقت برأسي، وقلت:

- أنا كنت مهددًا بجوع قاتل، بوحدة، بموت منسي، هذا لا يكفي بالنسبة لهم!

وبينما الأيام تمرُّ، كنت أتفقد أسماء الأيام. أصبح الزمن شيئًا آخر، شعورًا ثقيلًا يُقاس بغياب الأمل، لكنه تمسَّك بشيء صغير، نظرة الحارس العجوز "لويجي" الذي كان يناولني تفاحة كل خميس، دون أن أتكلم.

قال لي في مرة نادرة:

- "أنت لست سيئًا، العالم قاسٍ".

وفي زاوية السجن، كتبت على الحائط بخدش صغير:

- "أنا لست مجرمًا، أنا فقط حاولت أن أعيش".

-٢٢-

"رسائل بلا طوابع"

مرَّت أسابيع، وربما أشهر، دون أن يسمع أحدهم اسمه. في مركز الاحتجاز ذاك، لا أحد يملك ساعة، ولا تقويمًا. وحده الجوع يضبط الوقت، والخوف يحدد الفصول.

ذات صباح، استيقظت على صراخ شاب إفريقي فقد عقله، ظل يضرب رأسه في الحائط ويصيح بأسماء لا أحد يعرفها؛ هرع الحراس، حقنوه بمهدئ، ثم اقتادوه بعيدًا.

قال أكرم بصوت متعب:

- اليوم الثالث من غير نوم، كان يحلم بأخته الصغيرة.

ذلك اليوم، قررت أن أفعل شيئًا لم أفعله من قبل، وهو أن أكتب رسالة، ولو في عقلي.

جلست في زاويتي، أغمضت عينيَّ، وهمست إلى أمي التي لم تودعني، أتمنى أنكِ هناك، في مكان لا يشبه هنا. المكان هنا صامت، حتى الصراخ فيه متعب،

أتعرفين؟

- أصبحت أخاف من الأبواب أكثر من البحر.

حين كانوا يقولون لنا:

- البحر مالح لكنه أرحم من البشر، لم أصدق، الآن أصدق.

أنا بخير، أعيش على نصف تفاحة وربع ابتسامة من رجل عجوز لا يعرف اسمي. سامحيني لأنني لم أعد ذلك الطفل الذي كان يركض خلف العصافير فوق سطح العمارة. حين أنتهي من الرسالة سأشعر أنني أخفُّ، ولو للحظة". وفي اليوم التالي، حصلت على شرف تنظيف الحمامات، عملٌ مقزز، لكنه يتيح لي الحركة، والاختلاء بنفسي دقائق.

هناك، كتبت على الجدار الداخلي، بحافة غطاء بلاستيكي:

- من يعش على الهامش، لا يملك ظلًّا.

حدث غريب في نهاية الأسبوع، تم اقتياد اثنين من أصدقائي فجأة دون سبب واضح، قيل إنهما قد رُحِّلا.

همس أحد الحراس:

– يوجد من يدفع المال للتهريب حتى من داخل المركز، السوق شغال من الخارج والداخل.

عادت الفكرة القديمة تلوح أمامي، هل أهرب مرة أخرى؟

هل أطلب المساعدة من الشبكات نفسها التي أوصلتني إلى هذا المصير؟

وفي إحدى الليالي، جاءت فتاة شابة إلى المركز، أصغر من الجميع، ترتدي وشاحًا رثًّا، وتبكي بصمت؛ اقتربت منها، وسألتها:

- ما اسمك؟

قالت بصوت واهن:

- نور، من بنغازي.

منذ لحظتها، أصبحنا نتبادل الحديث عند الفجر. قالت لي ذات مرة:

- أنت لست وحدك، شخص ما ينتظرك في الخارج، حتى وإن لم تعرفه.

هذه الكلمات البسيطة، أنقذتني من الانهيار. بدأت أضع في ذاكرتي رسالة جديدة، عنوانها:

- "إلى الذي ينتظرني، وإن لم يكن بَعْدُ قد عرفني".

-٢٣-

"الليل طريقًا"

كانت الساعة تقترب من منتصف الليل، والبرد ينخر العظام من تحت البطاطين الممزقة.

المولد الكهربائي توقف عن العمل، وغرقت الزنازين في عتمة مطبقة.

همس لي أكرم:

- الليلة، إن لم نخرج فلن نستطيع الخروج!

كنا نراقب الباب الخلفي للمطبخ طيلة أسبوع، لاحظنا أن الحارس العجوز- الذي يدخِّن حتى يغفو واقفًا- يتغيب عن الوعي في منتصف الوردية. كانت الفرصة الليلة، التيار مقطوع، المولد معطوب، الحارس وحده، والنوم فوق عينيه. تحركنا بصمت كالظلَّين، زاحفين على بطوننا في

الممر الترابي، ملتفين حول الحائط الجانبي، وما إن وصلنا إلى باب المطبخ، حتى تفاجأنا بأنَّه مفتوح بالكاد، وبداخله ضوء خافت ينبعث من شمعة موضوعة فوق برميل صدئ؛ دخلنا.

فتح أكرم خزنة الطوارئ الصغيرة، وسحب منها مفكًّا صدئًا.

البوابة الخلفية مربوطة بسلك لو فتحت من الجنب فإننا نستطيع الهروب للجهة الغربية. هناك مجرى ماء، وبعده الصحراء. تحركنا بسرعة، والرعب يعصف بقلبينا.

وفجأة وقف سائلًا:

- إلى أين أنتم ذاهبون؟

كان صوت أحد الحراس الجُدُد، شاب ليبي ضخم الجثة، يقف عند الممر حاملًا سلاحًا خفيفًا.

لم أفكر، ركضت، وأكرم كذلك.

أُطلقت طلقة واحدة في الهواء، تبعها صراخٌ وحركةٌ في كل الزنازين.

في فوضى الليل، تسللنا إلى السور الترابي الخلفي، وقفزنا فوقه. سقطنا في حفرة رملية، لكن الألم كان أهون من أن يوقفنا.

ركضنا لمسافة طويلة، والرصاص خلفنا كأصوات أشباح، وفي النهاية توقفنا لاهثين في عمق الصحراء، لا أنوار، لا أصوات. كنا فقط في ظُلمة، ورائحة الحرية ممزوجة بالخوف.

قال أكرم وهو ينهار أرضًا:

- لو عبرنا هذه التبة فسنصل للطريق الجانبي الموصل للبحر، لا بد من الاختفاء يومين!

أومأت، وأنا أنظر إلى النجوم:

- أنا لن أرجع، حتى لو نهايتي هنا.

-٢٤-

"البحر لا يسأل"

كانت الرمال لا تنتهي، والشمس تطارد خطاهما كعدوٍّ شرس؛ لكنَّ الأمل كان يسبق التعب. بعد يومين من الاختباء في فجوة صخرية قريبة من الطريق المهجور، ظهر الرجل الذي وعدهم بالمساعدة، صيَّاد ليبي عجوز يُدعى "عمار"، كان يعرف الطريق والبحر ويكره السماسرة.

قال وهو يمسح العرق عن جبينه:

- يوجد مركب قديم، يُستخدم وقت الطوارئ، نستطيع الهروب الليلة. البحر هائج، لكنه سيسعفنا.

في الليل، تحرك الثلاثة بهدوء، اقتربوا من خليج صغير بين الصخور غرب زوارة، لا جنود، لا دوريات، فقط أصوات

أمواج تصطدم بسفح الجرف، ورائحة ملوحة تختلط بالخوف.

كان المركب مهترئًا بعض الشيء، يحمل آثار ملح وصدأ، لكن قلبي دَقَّ كما لو أنه صَعِدَ مركب نوح.

قال أكرم هامسًا وهو يصعد:

- إما الحياة، أو البحر يأخذنا برحمة.

أبحروا دون ضوء. الموج عالٍ، والريح تصرخ في وجه الليل.

كنت أحدق في العتمة، وعيناي تدمعان دون أن أشعر. تذكرت كل شيء: الزبالة، القطط على السطح، الأيام التي نمت فيها بلا رغيف، يد الرحمة التي منعتني من الانتحار؛ والآن، الآن، هذا البحر!

همست:

- يا بحر، افتح لنا صدرك.

مرَّت الساعات ثقيلة، لمحهم زورق خفر سواحل من بعيد؛ فخفض عمار المحرك فجأة، واختبأنا نحن الثلاثة تحت الشراع الممزق.

مرت اللحظة كسكين في الحلق، ثم هدأ كل شيء. المركب يهتز، والنجوم تلوح في الأفق.

قال عمار بصوت مرتجف:

– لو وصلنا للماء الهادئ، لأصبحنا بجوار المياه الدولية؛ ووقتها، يا أوروبا، يا معجزة!

لكن صوتًا مفاجئًا دوَّى عاليًا، طائرة تحلق في الفضاء صغيرة الحجم يبدو أنها بدون طيار، ظهرت من فوقنا.

شهق أكرم:

- هل رأونا؟

لكنَّ الطائرة اختفت فجأة، وكأنها شَبَحٌ. هدأ المركب، وبقي البحر مفتوحًا.

قلت وأنا أنظر إلى السماء:

- **لا أريد الوصول فقط، أنا أريد العيش، حتى لو وسط الماء.**

-٢٥-

"الهاوية المالحة"

هدأ كل شيء. فجأة، خفضت الرياح صوتها كأنها تتهيأ للصمت القاتل، وانسحبت النجوم خلف الغيوم، ووجه البحر قد اكتسى بلون الرَّصاص. كنت مستندًا إلى حافة المركب أتأمل المدى المجهول حين دوَّى الصوت. صرخة واحدة، ثم ارتجاجٌ مفاجئ.

صرخ عمار:

- الميزان انقلب، الموج يخترق الجانب!

المركب راح يهتز بعنف، الماء تدفق نحو القاع. صرخ أكرم وهو يمسك الحبال:

- المركب سيغرق، تسلل الماء إلى القاع، شِدْ يا موسى، شِدْ!

لكن، لم يكن هناك ما يُشَدُّ. كل شيء تهاوى فجأة، كما لو أن البحر قرر ابتلاعنا في لقمة واحدة. صرخة قوية ثم ظلام...

موجة بحجم الجبل انقلبت على المركب، فجعلته كعود ثقاب في إعصار. تطاير الجميع، رأيت السماء تنقلب إلى القاع، والماء يصفعني كأنها يدُ أبي الميت تعاتبني. كتمت أنفاسي، دفعت جسدي بكل قوة بحثًا عن سطح، عن هواء، عن نجاة؛ لكن الحبال تشابكت في قدمي، وعيناي فُتحتا على سمكة ميتة طافية.

ساد صمت قاتل تحت الماء، ثم امتدت يد تشدُّه. سحبت نفسي من عمق الموت، ثم خرجت بوجهي فوق السطح، ألهث، أبكي، أصرخ بلا صوت! لم أرَ المركب، ولا عمار، ولا شيئًا سوى بحرٍ ممتد إلى اللا نهاية. الليل ثقيل، والموج يصفق كأنه يسخر، تمسَّكت ببقايا خشب، لوح صغير بحجم جسدي، يشبه يأسي، وجلست عليه، نصفي في الماء، ونصفي في الحلم!

همست كالمجنون:

- لا أريد الموت، ليس الآن!

ثم سمعت أنينًا ضعيفًا، أكرم؟ أم طيف آخر؟ كان هناك شخص آخر يزحف فوق سطح الماء، يحاول الوصول إلى ما تبقَّى من الخشبة.

قلت بصوت مبحوح:

– أعطني يدك، امدد يدك، قبل أن يبتلعنا البحر!

وامتدت اليدان.

وصار الظلام وطنًا مشتركًا لاثنين من الهاربين، لا يعرفان هل البحر سينقذهما؟ أم فقط يؤجل الغرق!

-٢٦-

"جزيرة الأرواح"

حين ابتلعني البحر في المرة الثانية لم أمت، أو ربما مت! لكن بطريق لا يشبه الموت الذي نعرفه. حين فتحت عينيَّ وجدت نفسي على شاطئ غريب، لا هو أرض، ولا هو سماء، ولا حتى بحر، رماله ينبعث منها هدوء قاتل، وهواؤه لا يحمل رطوبة بل يحمل أصواتًا وهمهمات. جزيرة لا تعرفها السفن، ولا تزورها العصافير.

كانت صامتة كقلب أم فقدت وليدها، الرمال فيها لا تترك أثرًا، جزيرة بها شجرة واحدة تلتفُّ حولها الأرواح، وقمر لا يظهر إلا ليرحب بروح جديدة مليئة بالظلال، البحر يحيط بها من كل الجهات هادئًا كأنه خجلان، أسمع أصواتًا بلهجات مختلفة لأشباح مختفية. هناك رأيتهم، أرواح الغرقى، جمعتهم الجزيرة بعد أن فرقتهم

الأوطان. ظهر لي فجأة من الضباب، طويل القامة، أسود البشرة، مبتسمًا كأن الضحك لم يغادره حتى في الموت. كان يرتدي جلبابًا ممزقًا، لكنه نظيف، ويمشي كمن لا يحمل وزنًا في قلبه.

قال لي:

- **أنت جديد هنا، صح؟**

أومأت له، ولم أدرِ كيف يخرج صوتي، جلس إلى جواري ثم نظر بعيدًا نحو البحر.

وقال:

- **أنا إدريس من دارفور، عندما كنت صُغيرًا، أمي كانت تقول لي إن البحر مكان بعيد، لا يذهب إليه غير الذي تعب من الرمل.**

كنت أحب الرمل، لكن الرمل جعلني أدفن إخوتي فيه، كل واحد في حفرة، وكل حفرة كانت أكبر من قلبي!

سَكَتَ لحظة وكأنه يعيد ترتيب الصور في رأسه، ثم أضاف:

- حرقوا قريتنا، ما ترك الجيش ولا الميلشيات حجرًا على حجر، دمروها، مشينا أربعين يومًا في الصحراء نلحق الحياة، قالوا هناك مركب من ليبيا يبحر بالناس لبلاد الأمان.

دفعت آخر ما معي، ساعتي القديمة، ومصحفًا صغيرًا، البحر لم يسألني عن الساعة ولا الآيات!

سألني:

– هل تعرف السباحة؟

فقلت له:

– لا

قال:

- الآن ستنام عندي.

ضحك إدريس، وضحكته كانت مكسورة، مثل لوح خشب طافٍ على وجه الماء.

ثم نظر إليَّ من جديد:

- أنا لست خائفًا من الموت، لكن خائف ألا يعرف أحد أن إدريس حاول أن يعيش، حاول يقول إنه يستحق مكانًا أفضل في الحياة.

وضع يده على كتفي، كانت خفيفة مثل الريح، وقال:

- لو رجعت قل للناس إننا لسنا حالمين، كنا جعائين نحتاج إلى شربة ماء ووجه إنسان يقول مرحبًا.

في الركن الآخر من الجزيرة تحت الشجرة الميتة التي لا ظل لها، كانت تقف فتاة، لم تتكلم ولم تتحرك، فقط

كانت تمسك بدفتر مبلل تمزقت أوراقه، لكن لم تختلف كلماته.

اقتربت منها، وشعرت أن الهواء صار أثقل، فنظرتْ إليَّ دون خوف.

قالت:

- ما اسمك

قلت:

– موسى.

– وأنا اسمي "أروى"، كنت أدرس اللغة العربية في الموصل.

رفعت الدفتر قليلًا كأنها تعرفني على طفلها الوحيد.

- هذا دفتر طالباتي، كنا نكتب القصائد ونعلقها على جدران الفصل قبل أن ينهار، وقبل أن تصبح القصيدة جريمة.

جلست على الرمل، وبدأت تحكي:

- "في الليل كنا نكتب بالأقلام الخفية، ونخفي الدفاتر في حقائب الطعام، كنا نخبئ الحروف مثلما نخبئ الأرواح، حين بدءوا يفتشون المنازل، خبأت دفتري في صدري، وقررت أن أهرب.. الحدود كانت خنادق، والمعابر فخاخ، رحلت حتى وصلت إلى تركيا ومنها إلى البحر، هناك قالوا لنا إن القارب يتسع لعشرين راكبًا فركبناه خمسين!

كنت أحمل الدفتر في صدري كأنني أحمل طفلة صغيرة تركتها في الموصل.

تنهدتْ، ثم ابتسمتْ ابتسامة حزينة، واستأنفتْ حديثها: حين انقلب القارب، لم أصرخ، كنت أمسك الدفتر بيديَّ

الاثنتين، وعندما اختفى الأوكسجين، شعرت أن القصيدة تكمل سطرها الأخير؛ ثم سكتت!

قالت أخيرًا:

– إذا عدت فأخبرهم أنني لم أمت لأنني امرأة، ولم أغرق لأنني ضعيفة، بل لأنهم جعلوا من الحبر عدوًّا، ومن الكرامة جريمة!

ثم مزقتْ صفحة من الدفتر، ووضعَتْها في كفي.

قالت لي:

- خذها معك، ربما تكتب بها روايتك!

كنت أسير على الشاطئ الرملي في الجزيرة والضباب من حولي يعزف أنينًا. رأيت شابًّا يجلس على حافة صخرة ملساء ينظف آلة تصوير بلا عدسة، كأنها ما زالت قادرة على التقاط شيء، اقتربت منه.

التفت إليَّ وقال ببساطة:

- سوف أصورك لو سمحت.

ضحكت؛ فابتسم وقال:

- أمزح معك فالكاميرا خربت.

سألته:

- ما اسمك؟

قال:

- يوسف من غزة، صحفي، مصور يصور الموت. يمكن يكون غير وظيفتي، بصراحة كان أسهل من تصوير الحياة.

جلسنا معًا وهو يتحدث بينما يقلب ذكرياتٍ لا تُرى، أول صورة التقطتها كانت لأختي وهي تضحك قبل ما تموت بسنة، ثم صرت أصور الجثث، البيوت المنهارة، الأحذية المتروكة في الشوارع بعد الغارات. وعندما أقوم بنشر صورة، يسألونني:

- أين الطرف الثاني؟

تنهَّد، ثم قال:

- ما كنت أريد ترك غزة، آخر مرة لمَّا القصف قتل جيراني وهم نازحين، شعرت أنني في الصورة معهم فلا يوجد فرق؛ قررت أن أهرب.

نظر إلى البحر بعينين فيهما انكسار وقال:

- خرجت من نفق برفح مشيًا لسيناء، ودفعت لناس لا أعرف أسماءهم.

وصلت الإسكندرية، ركبنا قاربًا، أخذتني غفوة البحر:

- وأنا أكره المصورين.

ضحك ضحكة قصيرة، وقال:

– آخر صورة في ذاكرتي، كانت لماء البحر وهي داخلة فم طفل صغير ما كان ليكمل سنة.

ثم سكت وكأن الموجة التي قتلته عادت من جديد لتبتلعه. نهض، وسلمني الكاميرا المكسورة.

وقال:

- أعطِها لمن يملك عينًا وضميرًا، وقل له: إن الصور الحقيقية ليست هي التي يشترونها، الصور الحقيقية ماتت في البحر!

ثم مشى نحو البحر، وكلما اقترب منه؛ كانت الأمواج تتراجع كأنها تخجل.

-٢٧-

"الشاطئ الممنوع"

كان الصباح يفتح عينيه على استحياء، والضوء يُغسل بماء البحر كأنه خائف من الحقيقة، وأنا ممدَّدٌ فوق الخشبة العائمة، نصف جسدي داخل الماء، وأكرم بجانبي شاحبٌ، مغمضُ العينين.

لم يعد هناك صراخ، ولا موج، فقط همس الريح، وخفق البحر المتعب، ثم صوت محرك.

رأيت ظلَّ قارب صغير يقترب، كان ضبابيًّا بلا ملامح، كأنه حلمٌ أو كابوس.

- هاي! أيأتي أحد؟

جاء الصوت بلهجة ليبية فظة.

فتحت عينيَّ بصعوبة، ثم لوَّحت بيدي المرتجفة.

اقترب القارب، صَعِدَ رجال بزيٍّ رملي، وجوههم جامدة كالصخر.

نظر أحدهم إليَّ، ثم إلى أكرم، وقال دون انفعال:

- هاربين، أرجَّعوهم.

صرخت:

- انقلب مركبنا! نحن ضائعون.

لكنهم لم يستمعوا، رفعوهما كأنهما جثتان، حُمِلا بلا أسماء. في عيون الرجال لم تكن هناك رحمة، فقط مُهمَّةٌ تُنفذ.

-٢٨-

"العودة إلى القيد"

نُقِلنا إلى مركز حدوديٍّ ليبيٍّ. مبنى خرساني بلا نوافذ، جدرانه تُشَمُّ فيها رائحة عرق الموتى. دخلت الزنزانة، وأنا أجُرُّ أكرم الذي ما زال حيًّا بالكاد. كان هناك أكثر من ثلاثين شابًّا، وجوههم صفراء، عيونهم مجوفة، كأنهم خرجوا من المقبرة، اقترب منهم رجل بملابس عسكرية، في يده دفتر وقلم.

- اسمك؟
- موسى عبد المولى.
- من أين؟
- من مصر، القاهرة.
- والثاني؟
- أكرم صاحبي، كان معي على المركب.

دَوَّنَ بقلمه على الورق، ثم قال بجفاف:

- سنرسلكم إلى طرابلس، ومن هناك، الذي دفع يرجع يدفع مرة أخرى، والذي لم يدفع يظل هنا حتى يختفي.

تبادلت وأكرم نظرة صامتة، عدنا من الموت إلى موت مؤجل، ولم يعد هناك سؤال ولا رجاء !

-٢٩-

"شهادة من القاع"

داخل مركز الاحتجاز في طرابلس، حيث الهواء ثقيل، والجدران تسرب الرطوبة والقلق، جلست في زاوية الزنزانة، أحدِّق في الفراغ. كان أكرم قد انهار تمامًا، بينما هو يشتعل من الداخل، سمع صوتًا جديدًا في الساحة. رجلان يرتديان زيًّا نظيفًا نسبيًّا، يحملان حقائب ودفاتر، وخلفهما حارس يتثاءب.

قال أحد السجناء بصوت منخفض:

- إنهم من الصليب الأحمر.

انتفضت، اقتربت منهم، وجهي شاحب، عيناي حادتان،

رفعت يدي بتوتر:

- أنا لديَّ كلام مهم.

نظر إليه أحدهم، ثم أشار إليَّ أن اقترب. اقتادوني إلى غرفة صغيرة، جلسوا، وضعوا كشافَ تسجيلٍ على الطاولة. قال الموظف بلطف:

- تفضل، ما الذي عندك؟

ترددتُ قليلًا، ثم قلتُ بنبرةٍ جادة:

- أنا شاهدت كل شيء، رأيتهم كيف يشحنون الناس كالبضاعة، من يتكلمون معهم في التليفون، ومن يتسلم الأموال. أنا كنت هناك، في زوارة، في المخازن.

نظر إليَّ الموظف باهتمام مفاجئ، وأخرج دفترًا جديدًا. يسألني:

- هل تستطيع ذكر أسماء؟

أومأت برأسي:

- نعم، شخص اسمه العقرب، ليس اسمه الحقيقي، هو الرأس الكبير، يمتلك شبكة مهربين في مصر وليبيا، والمركب الذي ركبناه هو ملكه. أعرف صورته وصوته، وناس عملت معه.

سألني الموظف:

- ولماذا تخبرنا الآن؟

أجبت والدمع يلمع في عينيَّ:

- لأنني كرهت الموت، كرهت الصمت. الشباب من بعدي سيموتون، ولا أحب أن يعيش آخرون مرة أخرى ما عشناه.

صمت قصير، ثم كتب الموظف ملاحظة، وقال:

- سنُبلغ الجهات المختصة، وسنتابع حالتك.

خرجت من الغرفة خفيفًا كمن نزع عن صدره جبلًا.

ربما لن يتغير العالم بسرعة، لكنَّ شيئًا تحرك؛ ولأول مرة، أشعر أنني لم أعد مجرد رقم؛ بل شاهدًا على الحقيقة.

-٣٠-

"سقوط العقرب"

مرَّت أسابيعُ منذ قدَّمت شهادتي للصليب الأحمر، نُقلت بعدها إلى مركز احتجاز خاص في طرابلس يخضع لإشراف دولي.

المكان أقل وحشية، الطعام يصل، والوجوه أقل قسوة. في أحد الأيام، دخل موظف أممي برفقة ضابط من شرطة دولية بزي مدني:

- نريدك معنا، توجد عملية دولية شغالة، محتاجين إليك.

ركبت معهم سيارة دفع رباعي سوداء، الوجهة نحو قاعدة أمنية مشتركة بين ليبيا ومنظمات دولية معنية بمكافحة تهريب البشر.

دخلت غرفة كبيرة فيها شاشات وأجهزة اتصال، وضباط من جنسيات مختلفة. على إحدى الشاشات كانت تُعرض صورٌ جوية، ومواقعُ مخازن، وقوائمُ أسماء. رأيت صورة العقرب في منتصف اللوحة.

سألني أحد الضباط:

– هل هو هذا؟

- نعم مؤكد.

– هذا وجهه، وهذا صوته، والمخزن الذي تم الحبس فيه.

بدأت الحملة بتنسيق مشترك بين قوات ليبية ووحدات أوروبية خاصة، اقتحموا مواقع في زوارة وطرابلس. قُبض على عشرات من أفراد الشبكة.

لكن الرأس – العقرب – كان متخفيًا داخل جبل أكاكوس.

-٣١-

"اختفاء العقرب داخل جبال أكاكوس"

لم يكن الليل في جبال أكاكوس"[١]" ليلًا عاديًّا، كان صمتًا حجريًّا، كأن الزمن قد توقف عند آخر صرخة رُسمت على جدران الكهف منذ آلاف السنين. جاء العقرب عند مدخل المغارة، ظهره إلى الصخر، ووجهه إلى الأمام، لم يشعل نارًا، النار تُرى وهو تَعَلَّمَ أن يكون أثرًا لا يُرى. الهواءُ باردٌ جاف، يحمل رائحة الحجر القديم، رائحة العظام التي صارت ترابًا، ولم يُسأل عنها أحد.

في عمق الكهف، كانت الرسوم الصخرية تتحرك في الضوء الخافت لمصباح صغير.

---

[١] ـ جبال أكاكوس: هي جبال صخرية تقع في جنوب غرب ليبيا، وضمن الصحراء الكبرى، وأقرب مدينة إليها هي "غات" الأثرية، ويوجد بها أقدم المراكز الفنية في شمال إفريقيا والعالم العربي قبل التاريخ.

كان العقرب يضع خريطة على الأرض، حجارة صغيرة فوق خطوط التهريب، كل حجر اسم، وكل اسم روح معلقة، البحر في آخر الخط لا يصل إليه.

جبال "أكاكوس" هي القلب، ومن يملك القلب يملك الجسد.

دخل عليه أحد رجاله متردد الخُطى: الدوريات اقتربت، ثم رفع العقرب رأسه وقال:

- "الجبل لا يقرب، الجبل ينتظر".

خارج الكهف، مرت الريح بين الشقوق كتحذير قديم، العقرب يعرف هذا الصوت، سمعه أول مرة حين هرب طفلًا، وحين قرر لاحقًا ألا يهرب مرة أخرى.

هنا، لا أحد يطارده، المدينة تسلم أبناءها، أما الجبل فيخفيهم.

اقترب من الجدار، لمس الرسوم بيده، ثم قال:

- هؤلاء عاشوا وماتوا لم يعرفهم أحد!

- أنا سأعيش، ولن ينساني أحد.

انطفأ المصباح، بقيت العتمة، وبقي العقرب جزءًا منها، كأنه خلق من أحجار أكاكوس، أو كان هو الجبل نفسه، قرر أن يتكلم من خلاله.

-٣٢-

"مناورات داخل الجبال"

لم يخطئ العقرب في قراءة الجبل؛ لكنه أخطأ في قراءة البشر. مع أول خيط ضوء انشق الصمت، لم تكن طلقة ولا صرخة، بل اهتزازًا خفيفًا في مصدر الصخر، كان أكاكوس قد تنفس بعمق، غير معتاد.

فتح العقرب عينيه بسرعة خاطفة، هذا الصوت لا تصنعه الريح، سمع همسًا وهمهمات:

- لكنهم لا يعرفون أين نحن.

تحرك العقرب داخل الممرات الضيقة، يعرفها حجرًا حجرًا، كل التفافة كانت فخًّا، كل ظِلٍّ كان صديقًا، أشار لرجاله أن ينقسموا، لا صوت، لا إطلاق نار، ففي الجبل الرصاصة تفضح صاحبها.

من بعيد، أضواء خافتة تتحرك، تنطفئ ثم تعود؛ فأدركوا أنهم ليسوا هواة.

قال في نفسه:

- **تعلموا الصبر، هذا خطر.**

رمى حجرًا صغيرًا في ممر جانبي، ردَّ الصدى طويلًا كأنه كتيبة واحدة.

تقدم فريق المطاردة نحو الصوت، بينما انزلق العقرب في الاتجاه المعاكس.

قلبه ثابت، أنفاسه محبوسة، لكنَّ الجبل الذي خبأه سنين بدأ يضيق. في ممر لم يستخدمه منذ شهور، وجد علامة لم تكن هناك من قبل، خيطًا رفيعًا غير مرئي تقريبًا توقف.

ابتسم ابتسامة باردة:

- **أذكياء**

تراجع خطوة، لكنَّ الأرض تحت قدميه انزلقت؛ لم يسقط، أمسك بالصخر، غير أن الصوت خرج خيانة صغيرة، لكنها كافية.

هتف صوت من عمق الظلام:

- ارمِ السلاح، كأن "أكاكوس" انتهى، ضحك العقرب ضحكة قصيرة، الجبل لا ينتهي.

أطفأ مصباحه، واندفع إلى العتمة، تبادل المواقع، صَعِدَ بدلًا من أن يهبط، واختفى بين الرسوم القديمة.

لحظة كان فيها سيد المكان، لكنَّ رجلًا واحدًا لم يندفع خلفه، بقي صامتًا ثابتًا، رفع عينيه إلى السقف وأسقط حجرًا، انهار جزء صغير من الممر.

العقرب وجد نفسه في جيب صخري بلا مخرج خلفي، أدار رأسه ببطء، الضوء عاد هذه المرة من كل الجهات، قال بهدوء غريب: "الجبل خانني!".

جاء الرد:

- **لا، الجبل سوف يُدك.**

وضعت الأصفاد في صمت، لا انتصار، لا هتاف. فقط صوت معدن على حجر، كان أكاكوس يسجل نهاية فصل طويل، وقبل أن يساق إلى خارج الكهف، التفت العقرب إلى الرسوم، مد يده، لمسها للمرة الأخيرة.

وهمس:

- **"أنا كنت ظلكم، والظل لا يكره الضوء ولكن لا يعيش فيه".**

ثم خرج، وبقي الجبل.

-٣٣-

"سقوط العقرب"

خرج العقرب من كهفه مقيد اليدين لأول مرة بلا ظل. كان الجبل شامخًا باردًا، كأنه شاهد محايد على كل الصفقات والهمسات الليلية، المناظر الخلابة لم تُخفِ القبح بل فضحته.

اقتادوه عبر ممرات حجرية تشبه أفواه الموتى، والمروحيات تحوم كنسور شِباع. لم يقاوم، كان يعرف، وكل المهربين يعرفون متى تنتهي اللعبة. في حجرة التحقيق الغرفة بلا نوافذ، جدران رمادية، طاولة معدنية، ضوء أبيض قاسٍ لا يعرف الرحمة، خلعوا عنه نظارته السوداء للمرة الأولى. يرى نفسه في انعكاس الزجاج، لم يكن هناك محقق، كنت أنا، دخلت بهدوء أحمل ملفًّا

ثقيلًا، كانت أوراقه مشبعة بالماء المالح، جلست قبالته دون أن أنظر إليه.

قال العقرب بابتسامة واهنة:

- **كنت أتوقع ضابطًا لا شاهدًا!**

فتحت الملف، عبارة عن صور، أسماء، تواريخ، مراكب غرقت، وأخرى لم تصل.

سألني:

- **هل ترى هذا الاسم؟**

أشرت إلى صفحة، ليس رقمًا، بل إنسانًا. صمت العقرب لأول مرة؛ لأنه لم يجد صفقة يعرضها.

بعد لحظة تكلم العقرب: أنا لم أقتل أحدًا بيدي. اقتربت قليلًا بصوت ثابت لكنه مشحون بالغضب: وأنا لم أقتل أحدًا بيدي، وعندما التزمت الصمت كان شريكًا، والفرق بيننا، أنني دفعت الثمن، وأنت من يقبضه.

اهتزَّ وجهُ العقرب، لم يَعْتَد على هذا النوع من المواجهة. السلاح هنا ليس تهديدًا بل ذاكرة، هكذا الدنيا يا موسى، الجوع يجعل البشر يعملون أي شيء؛ أغلقت الملف بعنف خفيف.

وقلت له:

- **الجوع لا يمكن أن يكون بيع بشر، الجوع صرخة أنت حولتها لتجارة.**

لاذ العقرب بالصمت طويلًا، وجَّهَ نظرةَ انكسار إلى يديه المقيدتين؛ لكن القيود كانت داخله.

قال بصوت مبحوح:

- **أتظن أنك أحسن مني؟**

ابتسمت بحزن، وقلت:

- **لا، ولكن أقل شرًّا!**

وقبل أن أخرج قلت له:

- الجبل الذي أخفاك سنينَ، هو من أوقع بك، والبحر الذي كنت أظنه قبرًا بلا شهود ظهر له لسان.

خرجت وبقي العقرب وحده تحت ضوء لا ينطفئ في تلك الليلة، لم يسمع صوت البحر، لكنه سمع صوت الغرقى كلهم، ينادونه باسمه الحقيقي: "المتاجر بالأرواح".

-٣٤-

"الشهادة في جنيف"

بعد أيام كنت في الطائرة المتجهة إلى جنيف والملف ذاته فوق ركبتي، لم يعد ملفًا أمنيًا بل ملف ذاكرة، الأسماء التي واجهت العقرب ستواجه الآن العالم. أخفى العقرب وجهه بيديه لا خوفًا بل انكسارًا بعد كشف حقيقته. ترددت الجملة في رأس العقرب وهي تقسمه: الجوع صرخة حولتها إلى تجارة. في جنيف، القاعة واسعة أنيقة، شديدة الإضاءة، أعلام الدول مصطفة، سماعات الترجمة، مكبرات صوت مصقولة. كل شيء هنا منظم، بينما الفوضى جاءت محمولة في صدور الشهود. قالوا اسمي، وقفت وذهبت إلى المنصة، وشعرت أن البحر يمشي معي خطوة بخطوة.

رئيس الجلسة تكلم بهدوء، الرجاء من الشاهد أن يلتزم بالوقائع.

ابتسمت وقلتُ:

- أنا هنا بالوقائع فقط.

فتحت الملف، توقفت لحظة، ثم قلت:

- القضية ليست مهرِّبًا واحدًا، العقرب نموذجًا.

تبدلت الوجوه في القاعة، وتم القبض عليه في جبال "أكاكوس"، مكان يبدو من بعيد لوحة طبيعية، لكنه كان مخزنًا للموت، والتهريب، والاحتجاز، وبيع بشر وأعضاء.

هذا ليس كلامًا، هذا ما رأيته وما سُجِّلَ، وما اعترف به الصمت قبل الكلمات، ورفعت نظرة عن الأوراق، ولأول مرة أتكلم بدون سند مكتوب. أسماء الغرقى لا تظهر في نشرات الأخبار، لكنها محفورة في ذاكرة البحر، وفي ضمير كل من نجا وصمت. سادت القاعةَ لحظةُ صمت، لم يكن صمتًا دبلوماسيًّا بل صمتًا للاتهام.

سأل أحد الأعضاء:

- هل لديك ما يربط هذه الشبكات بطرق الهجرة البحرية؟

أجبت فورًا:

- الطريق يبدأ بالصحراء وينتهي بالبحر، ومن لم يغرق هناك؛ ابتلعته الرمال قبل أن يصل.

وبصوت حاسم قلت:

- العقرب كان يظن أن البحر بالشهود، اليوم الشهود هنا.

في نهاية الجلسة أعاد رئيسها ترتيب أوراقه،

وقال لي:

– شهادتك ستنضم إلى السجل الرسمي.

توقف لحظة، ثم قال لي:

– بقي سؤال؟

بعد القبض على العقرب وكشف الشبكات، وبعد هذه الشهادات، ماذا عن الذين لم يصلوا أصلًا؟

ابتلعت ريقي وقلت ببطء، الذين لم يصلوا هم القضية!

سألني العضو نفسه:

– أين هم الآن؟

نظرت إلى القاعة، بعضهم في البحر، وبعضهم في الصحراء، والباقي في الانتظار. وجاء السؤال الأخير:

- ومن سيشهد لهم؟

نظرت إلى الميكروفون، ثم إلى يدي كأنها ما زالت مبللة بالملح، وقلتُ:

– الفصل الأخير لم يكتب بعد. ضربت المطرقة لتعلن عن رفع الجلسة، والبحر لم يرفع قضيته.

- ٣٥-

"قبور بلا أسماء"

كانت السيارة تسير ببطء فوق رمال تمتد بلا نهاية. صحراء ليبيا موحشة، صامتة، إلا من صوت المحرك ونسيم السموم الذي يخترق زجاج النوافذ. جلست في المقعد الخلفي، إلى جواري موظف من الصليب الأحمر، وفي المقدمة دليلٌ محليٌّ.

قال الموظف بهدوء:

- قبل سفرك أحببت أن ترى شيئًا، ربما تكتب عنه يومًا ما.

لم أفهم المغزى؛ لكنه أومأ. توقفت السيارة عند تلة صغيرة من الرمل.

نزلوا، وساروا بضعة أمتار حتى انكشفت لهم الحقيقة. صف طويل من التلال الرملية الصغيرة، كل تلة قبر! بعضها يحمل حجارة صغيرة، وبعضها لا شيء عليه سوى قطعة قماش باهتة، وبعضها فيه عظام مكشوفة أكلتها الشمس.

قال الدليل الليبي بصوت مبحوح:

– هنا، شباب كثير ماتوا قبل أن يصلوا. تعب، عطش، خيانة من المهربين، أو حتى أمل خانهم.

اقتربت، وجثوت على ركبتي أمام أحد القبور. كان هناك حذاء صغير، يبدو أنه لطفل.

ارتجفت وسألت:

- أيوجد أطفال أيضًا؟

أجابه الموظف:

– نعم، من السودان، وإريتريا، واليمن، وسوريا، وحتى مصر، لا توجد جنسية لم تأتِ.

أغمضت عينيَّ، وكأني أسمع أنينًا صامتًا يصعد من تحت الرمال، الوجوه، الضحكات التي لم تكتمل، الأحلام التي احترقت على حدود لا ترحم، كلها صارت ترابًا بلا اسم.

همست:

- كان من الممكن أن أكون واحدًا منهم، لولا يد أنقذتني في آخر لحظة.

استدرت إلى الموظف، وقلت:

- لا بد أن أكتب هذا؛ ليعرف الناس أن البحر ليس المكان الوحيد الذي يموتون فيه، لكن هناك صحراء تبتلعهم قبل أن يصلوا للماء.

أومأ الموظف، ثم قال:

- هل نرجع؟

وقف ياسين، نظر خلفه مرة أخيرة، ثم مشى وقلبه مثقل بوجعٍ لا يُداويه لجوء، ولا تُسكنه جنسية.

-٣٦-

"شهادة على الرمل والبحر"

مرَّت شهور منذ خرجت من مركز الاحتجاز، بعد أن أدليت بكلِّ ما أعرفه عن "العقرب" وشبكة المافيا. كان تعاوني مع الصليب الأحمر بداية جديدة، لكن ما رأيته في الصحراء لم أغادره يومًا. أُعيد توطيني في إيطاليا ضمن برنامج حماية الشهود. في البداية، عشت في صمت طويل، كأن كلماتي غرقت في البحر، لكنهم عرفوا أن هذا الشاب ليس عاديًّا. فهموا ذلك من نظراتي، من يديَّ المرتجفتين حين أرى الأطفال، من الليل الذي لا أنام فيه.

في أحد الأيام، جاءني مسئول أممي من مفوضية اللاجئين يطلب مني إن كنت أرغب في أن أشهد وأحكي للعالم كلَّ ما رأيته. سكتُّ لحظات طويلة وأنا أفكر أن أنقل للعالم أهوال ما حدث؛ فوافقت لأنقل صوت الغرقى

وأمنياتهم التي غاصت في القاع الأسود. بدأ ظهوري الأول في ندوة بجنيف، أحكي عن القارب الذي غرق، وعن الليالي الجائعة في مطروح. عن وجه "العقرب"، عن التخزين، والكهف، والجثث المدفونة بالرمل. كان الحضور صامتًا. سفراء، ناشطون، صحفيون، وكلهم ينظرون إليه كأنَّه يحمل الحقيقة الأخيرة.

تكررت الدعوات، من بروكسل إلى نيويورك. في كل مكان، أصبحتُ "الشاهد الذي لم يمت"، كتبت مقالات، ظهرت صوري في صحف كبرى، لم أنسَ القطط التي كنت أطعمها فوق السطح، ولا كيس الزبالة الذي أنبش فيه يوميًّا. لكن اليوم، أحمل القلم بدلًا من الخبز، وأحمل الذاكرة بدلًا من الجواز، وفي خطاب مؤثر أمام الأمم المتحدة،

قلت:

-أنا اسمي "موسى"، كنت مجرد رقم على مركب لكنَّني نجوت؛ لأشهد عن شباب دفنهم الرمل، قبل أن يموتوا

غرقًا. الهجرة ليست حلمًا، الهجرة صرخة، وأنا قررت أن أكون صوتها.

صمتت القاعة، ثم ضجَّ التصفيق. دمعة سقطت على خدي، لكني لم أمسحها؛ لأنها كانت آخر دمعة، لأجل من لم يَبْكِهم أحد.

-٣٧-

"الحلم والصليب الأحمر"

لمَّا صَعِدْتُ منصة جنيف كانت الكلمات تخرج من صدري كأن أرواحًا محبوسة سنين طويلة انفلتت تبحث عن خلاصها، تحدثت عن ليالي الصحراء، وعن الحفرة في طرابلس، وعن الأجساد التي كانت تنام فوق بعضها كطين متراصٍ لا اسم له، وحين أنهيت شهادتي لم أشعر بالراحة، بل شعرت أن عليَّ دينًا لم يُسدد بَعْدُ، دين الذين لم يصلوا، دينًا لأولئك الذين ما زالوا يطرقون أبواب البحر.

طلبت مني إحدى المسئولات في الصليب الأحمر – امرأة سويسرية تدعى إيفا – بعينين شفافتين تشبهان بحيرة جنيف في صباح صامت.

قالت لي:

– موسى، شهادتك ليست نهاية، إنها بداية طريق.

– أي طريق؟

– طريق يعود بالشباب قبل أن يذهبوا إلى البحر.

هنا ولدت فكرة مشروع الأمل. لم أختر الاسم عبثًا، تذكرت الحفرة في طرابلس، وكيف كان كلٌّ واحد فيها يبحث عن أمل في النجاة؛ يحمي قلبه من رعب الليل.

وقلت لنفسي:

- إن لم أستطع إنقاذهم هناك؛ فليكن لنا أمل ينقذهم هنا.

الأمل صار اسم المشروع واسم الحلم. عدت إلى بلدي فاستقبلتني الوجوه الباهتة، شباب يحملون الحقائب ويتأهبون للهرب، كأن البحر يفتح لهم بابًا سريًّا كل ليلة، لكنه وقف أمامهم،

وقال:

- البحر لا يأخذكم لأنكم فقراء، يأخذكم لأنكم تجهلون طريقًا آخر للعبور.

في مدينة القاهرة أنشأت مركزًا صغيرًا من ثلاث غرف، غرفة للمحاضرات، وغرفة للمشروعات الصغيرة، وغرفة سميتها "غرفة الرجعة" وهي للذين عادوا من التجربة ليحدثوا الآخرين قبل أن يُخطئوا. المشروع ليس كلمة، المشروع يبدأ بفكرة تنبت ثم تكبر. أنا لست رجلَ أعمال، أنا رجلٌ كان نصف جسده في البحر، ونصفه فوق زورق، تعلمت من البحر شيئًا واحدًا هو: "من لا يعرف اتجاهه يغرق".

كنت أعلمهم كيف يكتبون دراسة جدوى، كيف يقيسون احتياجات السوق، كيف يبدءون من الصفر بثلاثين جنيهًا، كيف يحولون مهارة صغيرة إلى باب رزق.

وكان الصليب الأحمر يمدني بدعم مادي لكل مشروع يثبت صاحبه جديته، أصوات جديدة.

جاءه شاب من أسيوط، قال له:

- يا أستاذ موسى، أنا كنت سأهرب، لكن كلامك جعلني أفكر، أنا فني صيانة موبايلات.

- رائع، سنبدأ بورشة صغيرة لك.

وجاءه طفل في الخامسةَ عشرةَ اسمه حسان، قال:

- أنا فقدت أخي في البحر، هل أستطيع أن أعيش؟

-٣٨-

"تراتيل البوح"

عند عودتي إلى كهفي الحقيقي، حين يغلق المركز أبوابه، أبقى وحدي في الغرفة الأخيرة التي أطلقت عليها اسم "الكهف"، أجلس أتذكر جنيف والصحراء والبحر، والأصدقاء الذين ابتلعهم الموج، وأبكي، فإنقاذ أحدهم من الغرق يعادل إنقاذ قارب بما فيه.

كنت أستعد الآن لأغلق النافذة؛ لكن دخل طائر الوقت، جناحاه مبللان بماء البحر، وفي منقاره رسالة مطوية، كأنها نجت وحدها من الغرق.

فتحت الرسالة، وقرأت:

- مسافرون نحن في سفينة الأحزان، مواطنون بلا وطن، مطاردون كالعصافير على خرائط الزمن.

مسافرون بلا أوراق، موتى بلا كفن، نبحث عن مأوى يسترنا، لا أحد يرانا، لا أحد يقرؤنا بلا ثمن.

مسافرون خارج الزمان، والمكان، والوطن.

طويت الرسالة بيد مرتعشة، رفعت عيني إلى النافذة، رأيت البحر بعيدًا هذه المرة، لكنه لم يخرج من داخلي، وأدركت أنني لم أنجُ وحدي، بل أدركت أن الكتابة صارت المركب الوحيد للنجاة.

هكذا صرت أنا "موسى" واحدًا من الناجين الذين عادوا لينقذوا الآخرين. أنا موسى، شاب عاش بين أمواج الألم التي غرق فيها آلاف الأرواح من شبابنا. حكايتي شهادة حية على ما حدث خلف ستار الحقيقة التي يخاف البعض أن يسمعها، وهي صوت لكل من فُقدوا، وتحذير لكل من يفكر في الهجرة غير الشرعية؛ كي لا يغامر بحياته في قوارب تهوي به إلى العمق الأسود، لكي يصبح جسده خبزًا لأسماك القرش. رحلتي ليست هروبًا من الواقع؛ بل غرقًا وهلاكًا. أريد أن يكون هذا السِّفر جدارًا يمنع سقوط المزيد

من الأرواح التي تأمُل أن تشق طريقها وسط ظلمة اليأس. لا ترحلوا، ستكونون مجرد وجبة للأسماك، ستصبحون خبزًا للبحر! في مدينة بعيدة، على شاطئ هادئ لم أره من قبل، جلست أكتب وأمامي دفترٌ مفتوح، وصفحة بيضاء تنتظر، ومن خلفي عمرٌ كامل، من القمامة إلى القاعة، من الجوع إلى الشهادة، لم يكن البحر الذي أمامي كبحر ليبيا. لم يكن ماؤهُ مالحًا وله طعم دماء المهاجرين، ولا مبللًا بصرخاتهم. كان هادئًا، كأنه يطلب الغفران، فلم أكن بطلًا، ولا شجاعًا! كنت فقط إنسانًا يريد أن يكون إنسانًا، يجد لنفسه مكانًا لا ينام فيه جائعًا. تذكرت وجه أبي، وهو يموت على سرير في مستشفى بلا دواء، تذكرت أمي وهي ترحل بلا وداع، تذكرت السطح، والقطط، والليل البارد، وأكداس القمامة، تذكرت يدًا رحيمة امتدت إليَّ لتنقذني من الغرق، لا أعرف لها اسمًا أو وصفًا، لكنها منحتني الحياة. رفعت عينيَّ نحو البحر، وتنهَّدت. لو أنني غرقت يومها؛ كانت حكايتي ستذهب إلى ما وراء الشفق الأحمر، وستخبو في أتون الزمن كعشرات الحكايات من قبلها، وعشرات الحكايات التي ستخبو بعدها، وتذوب منصهرة في عمق البحر، وفي أتون الخوف والهلع،

عدت لأصنع من جروحي سطورًا دونتها في أسفار الزمن، كي تكون شاهدةً على أنَّه كان هناك شابٌّ عاد من الموت، ليقول لكم إن الخبز الذي حلم به يومًا لم يكن في الهجرة، بل هنا في شوارع الضجيج، في وجوه الشباب المتعبة، وسط بسمات المحبين، وطموح الكادحين، وهمسات العذارى، حملت خبزي الذي عجنته بالخوف والملح، ثم سويته لأقدمه ساخنًا للجيل القادم.

" تمت "

سحبت نفسى من عمق الموت، ثم خرجت بوجهى فوق السطح، ألهث، أبكي، أصرخ بـلا صوت. لم أر المركـب. ولا عمار.ولا شيء.. ســـوى بحرٍ ممتد إلى اللانهاية. الليل ثقيل، والموج يصفق كأنه يَسخر. تمسّكت ببقايا خشب..لوح صغير بحجم جسدي، يشبه يأسى.
وجلست عليه، نصفى في الماء، نصفى في الحلم.همست كالمجنون:
مش عِـــايز أمــوت... مــش دلــوقتي. ثم سمـــع انينًا ضعيفًا...أكرم؟!أم طيف آخر؟